زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية

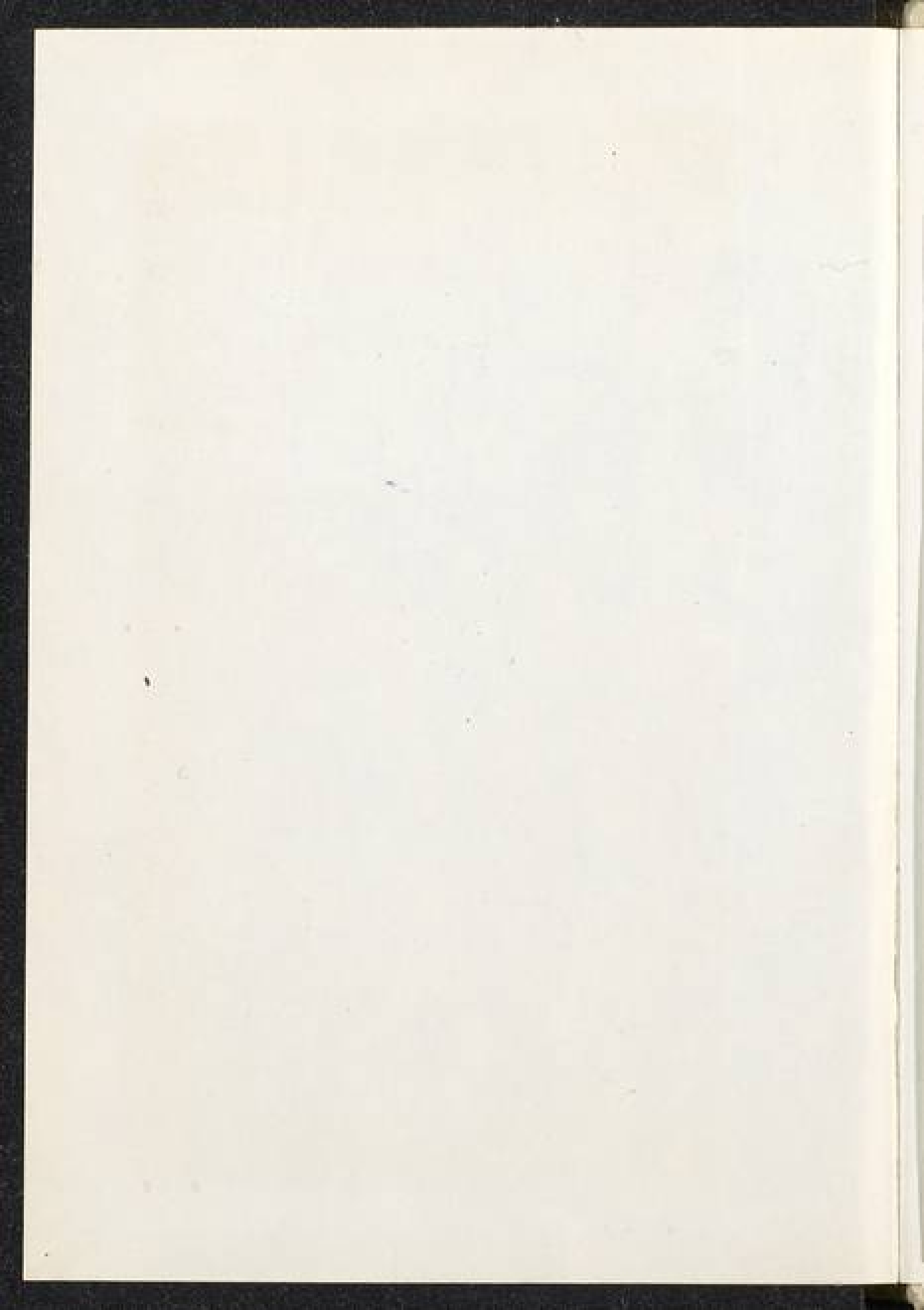
و

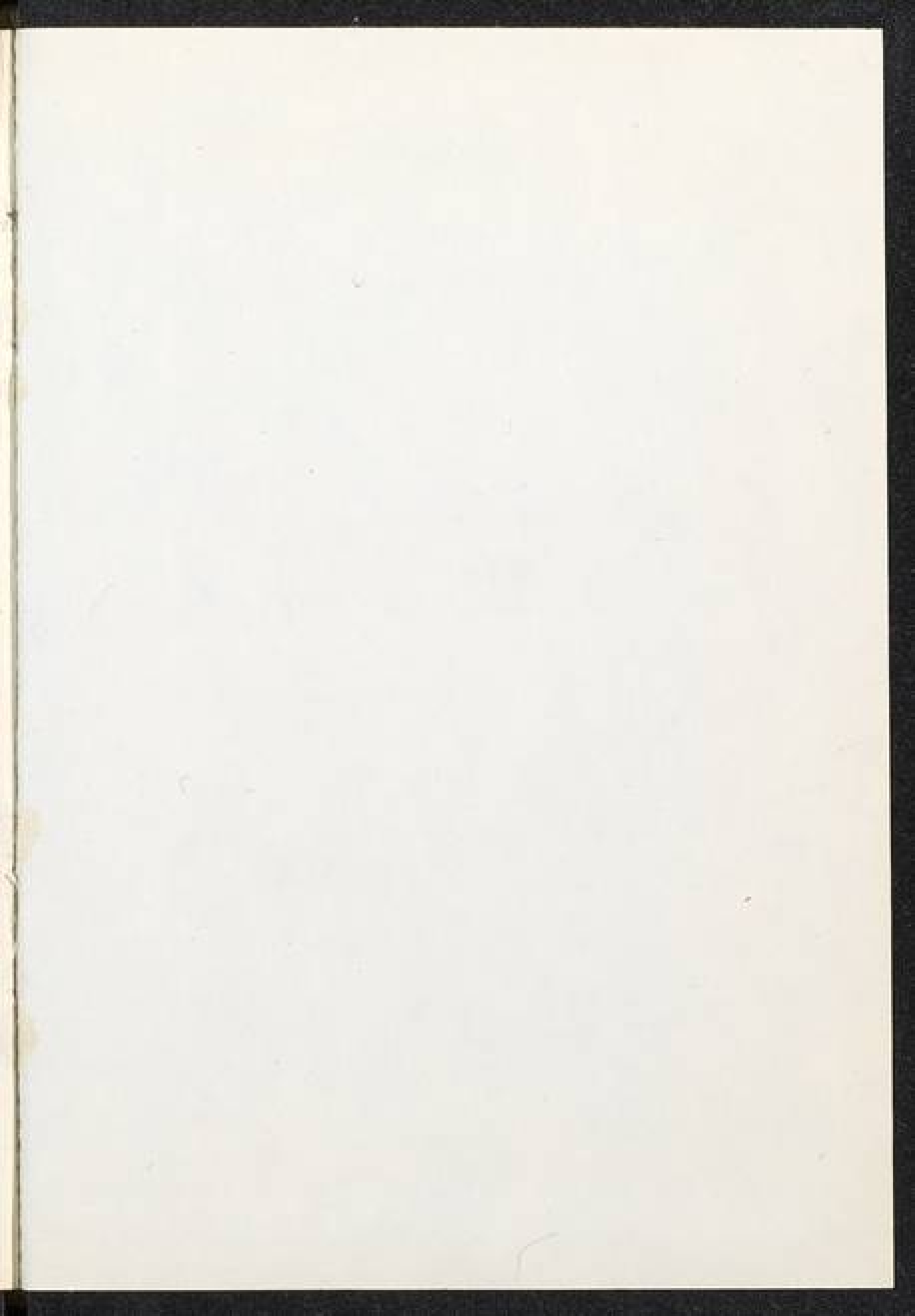
رسالتها الى العالم

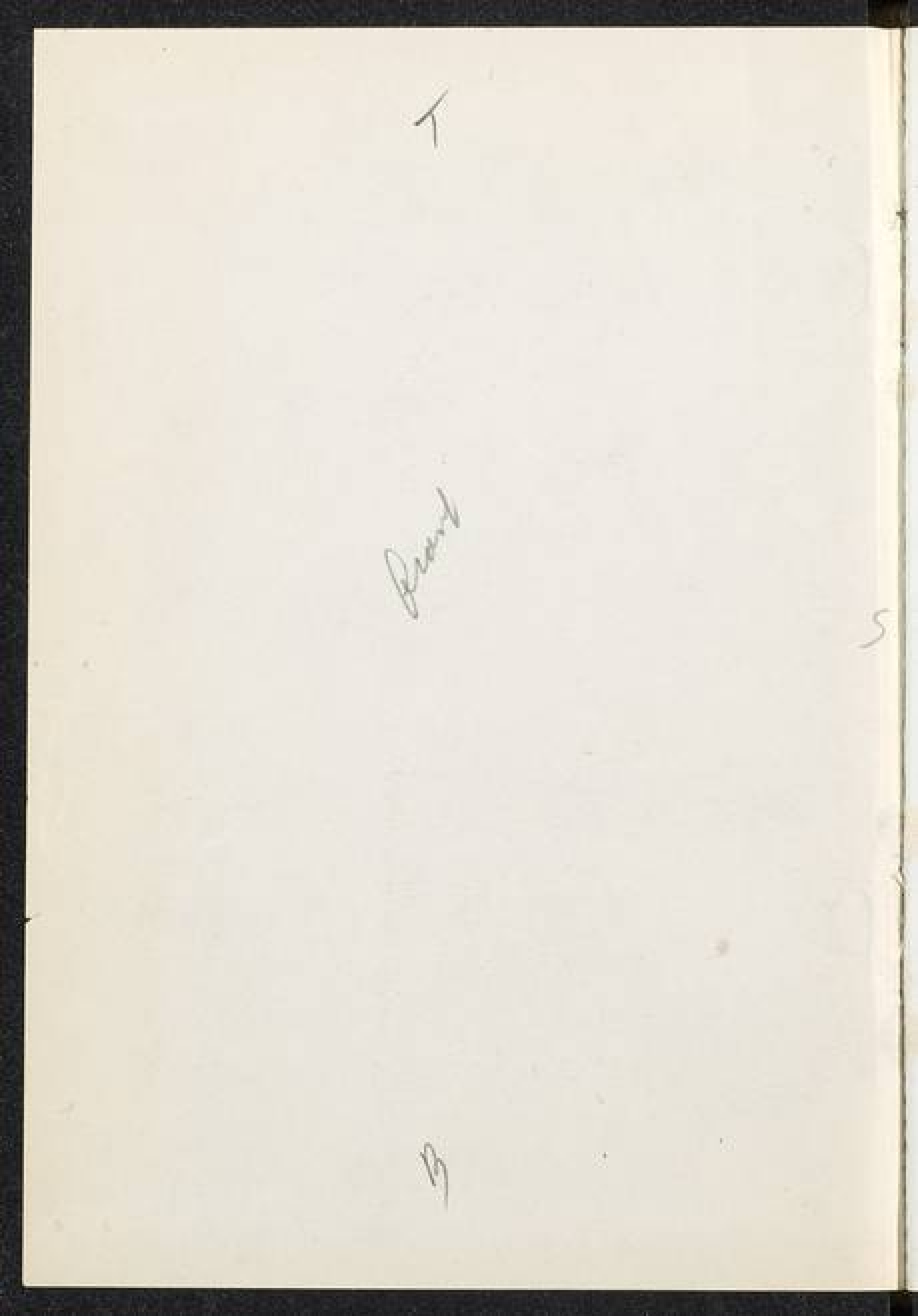
اللسان العربي

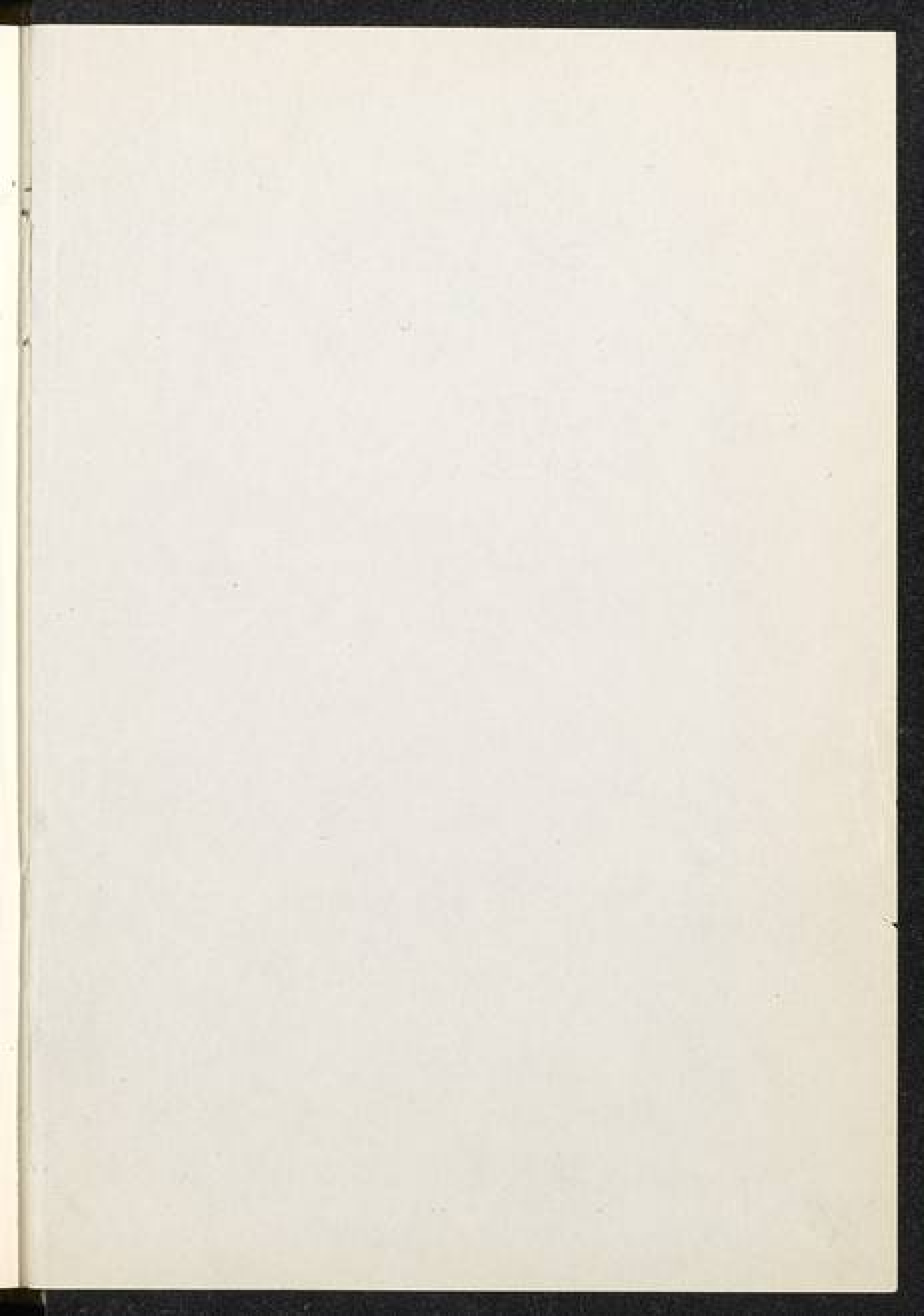
مطبعة الترقي بدمشق


BOBST LIBRARY
3 1142 01295 0070









زكي الأرسوزي

بعث الأمة العربية

و

رسالتها الى العالم

اللسان العربي

مطبعة الترقي بدمشق

المدخل

إن الأمة من المرحلة التاريخية كالبذرة من موسمها ؛ كلتاهما تنمو بتشعب العلاقة بينها وبين بيئتها الخاصة . إلا أن الأمة تزهو بتجاوب رحماني بينها وبين بيئتها الانسانية تجاوباً تستقطب به نفوس أبنائها التيارات الفكرية ، وتبعث بالرموز معاني . في حين أن البذرة تنمو وتزدهر بتفاعلها آلياً مع بيئتها الطبيعية .

أما البيئة الانسانية فتتألف من العلم والصناعة من جهة ، ومن المؤسسات الاجتماعية التي أورثها الأجداد للأحفاد من جهة ثانية . انها تتألف من رموز تتحول لدى الوعي الى معان يرتقي الذهن على مصاعدها نحو المفاهيم في مصادرها .

هذا فضلاً عن أن العلم ينسج قوام الفكر وأن اتصال الوجدان هذا بالطبيعة يجدد نسغ الحياة ، وانه بانسجام قطبي النفس هذين تنمو الشخصية أبدا .

وان الصناعة تبني هيكل المجتمع وبها يخضع الانسان ظروف البيئة لمشيئته ، وعلى قدر انتشارها تقوم قـــاعدة المجتمع [فسيحة في الطبيعة .

علم وصناعة : كلاهما يرجع التشتت في الآراء إلى الانسجام وكلاهما يحول الحياة من اتكال وخمول الى نمو وسطوة .

والمؤسسات الاجتماعية هي أيضاً تجارب إلا أنها تجارب في أصول الحياة يشترك فيها الأحفاد مع الأجداد اشتراكا يوفر به السلف على الخلف الجهد المبذول في سبيل الوصول اليها كما توفر عليهم تجارب اعلام البشر في الطبيعة الجهد المبذول في اكتسابها .

ان كلاً من المصلح والعالم ينهل من ينبوعي الحياة : الوجدان والطبيعة . إلا أن العالم يكشف عن الحقيقة الكونية بالتجربة في الطبيعة ، في حين أن المصلح يستجلي آية الشؤون الانسانية أي حقيقتها بالتجربة الرحمانية . ونفوس أبناء الأمة تشتد باكتسابهم الشعور بحقيقتهم المثلى وبتجاوبهم رحمانيا مع المرحلة التاريخية كما تزهو الأحياء في بيئتها الطبيعية أو كما يزكو الالهام بمواتاة العبارة البيانية لنزعته الفنية .

ولما كانت الحياة تجليات وكانت التجليات تندرج في الزمان اندراج الالهام أنغاماً في الأنشودة ، فقد أصبح شأن الانسانية

استقطاب هذه التجليات استقطاباً يرتقي به الذهن إلى الآية حكمة وجود التجليات ذاتها .

وعلى ذلك فإنما ينبغي من هذه الرسالة أولاً : استجلاء آية أمتنا كحقيقة تاريخية ، وثانياً : إنشاء فلسفة عربية يتحول بها ما نسجته الحياة عفواً إلى مستوى من الشعور بحيث نشترك مع العناية في تعيين مصيرنا ، نشترك بذلك هذه المرة ونحن أحرار .

لئن طلعت الحضارة الحديثة على العالم باكتشاف الأرض جرماً بين الأجرام السماوية فقد حملت الشؤون الانسانية طابع هذا المطلع النسبي ، نسبة الحوادث وتلازمها في وحدة الطبيعة وإذا كان هذا المطلع قد قشع عن الطبيعة النظام الذي كان يفصل الكون الى عالم علوي وعالم سفلي باعتبار الأرض وسطاً بينهما، قد قشع ذلك النظام الذي نسجه الانسان من خياله رتيباً hiérarchique معبراً عن بنيانه ذي القوام الرتيب ، فانه حجب عن العقل الحديث معنى شؤون الحياة وعاق اعلام الحضارة الحديثة عن فقه كنه الانسان، هذا رغم أنه أبلغ العلم غايته انسجام الطبيعة كلا وأجزاء في منظومة الجاذبية الكونين ، أفلم تبد المعرفة من خلال هذا المطلع النسبي صوراً يدعو بعضها بعضاً في الوجدان دعوة الحوادث بعضها في الطبيعة ؟ ! . أو لم نقم محاولة لإرجاع

المناسبات بين الشؤون الانسانية الى العادة وجعلها بهذا الارجاع خاضعة للعطالة على غرار الحوادث الكونية ؟!.

وإذا كان اكتشاف الأرض كجرم في المنظومة الشمسية قد أدى إلى انقشاع نظام الطبقات عن الطبيعة فإن اكتشافها ككرة أيضاً قد أدى إلى زوال الطبقات عن المجتمع. تفتحت الدنيا باكتشاف أمريكا على آفاق جديدة تمارس فيها شعوب فتية فعاليتها خلوا من تقاليدها بحيث نتج انقلاب في الانسانية مماثل لافتراق الحياة عن جنسيها : الحيوان والنبات. انقلاب انتقلت به الجماهير من حياة زراعية إلى حياة تجارية متحولة أبداً خاضعة بتحولها لتيارات المدنية عائمة على موجها.

لكن اكتشاف الدنيا الجديدة هذا أقام الثروة مقام الأصالة فسبب بذلك ظهور رأسمالية عالمية على مسرح السياسة الدولية تحرف الأمم عن غاياتها لتجعل فعاليتها وقفاً على مآرب اقتصادية كما حجب الطابع النسبي الذهن عن رؤية مراتب القيم في الفن والأخلاق.

وكذلك يرجع أمر ظهور الطبقة العاملة على مسرح الحياة إلى اكتشاف الأرض بعلمي : الفيزياء والكيمياء ، العلمين اللذين شيدت على معارفهما الصناعة الحديثة . والصناعة

الحديثة أيضا ، ان مهدت للعامل أن ينازع البورجوازي على إدارة شؤون الدولة وأن يقيم العمل مقام رمزه الثروة ، فان المعمل لم يفتأ يفكك أواصر الأسرة والأمة ليقوم مقامها باستقطاب العمال وتنظيم نقاباتهم على أسس دخيلة على طبيعة الحياة . حتى لقد أصبح العامل ملحقاً بالآلة خاضعاً لتطورها ، منها يستمد نسغ حياته وبطبيعتها يتكيف قوام كيانه .

هكذا تقوم الحضارة الحديثة على تناقض مقوماتها . فمن جهة تقشع بنظرتها الانبثاقية الأوهام عن الطبيعة والتقاليد البالية عن الوجدان ؛ ومن جهة أخرى تجعل طابع الحوادث الكونية ذا غلبة على صبوة الشؤون الانسانية إلى المثل الأعلى وإلا فكيف التبست على أعلام الفكر الحديث الكتلة المادية بالكتلة البشرية فبدت لهم الحوادث الكونية والشؤون الانسانية تخضع سواسية لقوانين طبيعية حتمية . أو كيف كان جازف هؤلاء بالزعم : « ان الحياة محصلة قوى الطبيعة » وإن الانسانية هي ظل البيئة الاقتصادية ؟

ولكن هل بدأت الشعوب الحديثة تفكيرها هذا بمسايرة تطورها لاكتشاف الأرض : موقعها في المنظومة الشمسية ، ومجاهلها وبنيانها ؟ ! أم كانت وجهة التطور هذه قد تعينت منذ

فجر التاريخ حين أخذت الشعوب الهندية الأوروبية تقيم تشريعها على مبدأ الجوار وترجع مفهوم الأمة إلى العلاقات التاريخية الاقتصادية ؟! بل حين أخذت الكلمة تتحول في لغات هذه الشعوب من صورة الى رمز . من منظومة بيانية الى لفظة دلالية ينعدم فيها الاعراب وتتضاءل الصلة بينها وبين شقائقها الأخرى حتى أصبح المعنى ملتصقاً بالصوت عرضاً واتفاقا .

إن الكلمة إذا اقتنصت المعنى وهوت به من آفاق رفعته إلى سطح الوجدان تحكمت العادة فتحول الذهن . بهذا التحكم من نام إلى راكد ، وعندئذ تتحول الفضيلة من الفيض إلى التقوى ، وعندئذ يرجع بالابداع من الانبثاق إلى صور متآلفة .

كذلك هي الشعوب الهندية ـ الأوروبية تتردد في تطورها بين النسبية والمادية فتبقى تارة على حدود الطبيعة وتدرك النظام الثابت بين حوادثها ، وتضل تارة أخرى عن معنى الشؤون الانسانية حتى ينتهي بها الشطط إلى تفسير الفن والأخلاق بالمادية الأنانية . ومع ذلك فان هذه الشعوب تتناوب مع الساميين توجيه الحضارة .

أما اليوم ، وقد تحول العالم عن الأصالة إلى دعائم برانية

تشيد عليها الأمم بنيانها فإن وجهة التحول هذه ترد ترجع به الانسانية القهقري على غرار تردي الأحيـــاء من ذات الهيكل العظمي إلى ذات القوقعة .

. . .

بينما كانت الكلمة في اللغات الهندية الأوروبية تتحول من صورة إلى رمز ، فتمهد بهذا التحول لذهن صاحبها أن يدرك النظام قانوناً في الكون ، وعدلاً في المجتمع ، وعقلاً في النفس ، كان اللسان العربي يوجه ببنيانه الاشتقاقي ذهن متكلمية نحو المعنى الذي هو مصدر النظام . ان الكلمة العربية من المعنى الذي أنشأها بمثابة الجسد من النفس ، تحمل طابعه وتكشف عنه حتى إذا ما اتجهت المشتقات متقاربة نحو الحدس تحول الحدس ، مصدر الاشتقاق ، من وميض إلى بصيرة . تتجاوب في منظومة أسرة الكلمات العربية المفهومات العقلية والمدلولات الحسية فتنمو بتجاوبها الشخصية ؛ إذ ليس للذهن إلا أن يساير وجهة التجاوب حتى يهتدي الى بزوغ الحقائق .

كذلك هي الكلمة العربية : تدل على مصدر اشتقاقها ، الحدس ، دلالة الأنغام على الالهام في الانشودة .

وكيف كان للكلمة العربية هذه المزايا ؟ اشتركت الحياة

مع الارادة في إنشائها مستندة الى التعادل بالمداد بين الصوت وبين بوادر Expressions الهيجان الأخرى ، فجاءت وكأنها وحي يوحى على لسان أحد النبيين ، جاءت معبرة عن وجهة نظر الحياة ذاتها في أصول الثقافة Culture وملخصة لتاريخ تجارب الإنسانية في سبيلها نحو وضع أمثل . إن الكلمة العربية امتداد لبادرة الصوت الطبيعية في الهيجان : جذورها في الطبيعة ورائدهـــا الملأ الأعلى . حتى إذا درست الكلمات العربية دراسة توليدية اهتدى الذهن على ضوئها إلى آية الأمة التي أنشأتها كحقيقة إنسانية . مثل اللسان العربي كمثل هيكل عظمي يوحي بكل من عظامه المبعثرة في طيات الأرض ، خيال لنوع منشئه .

والحكمة المأثورة : « الأسماء تنزل من السماء » تشير الى حدس أجدادنا في أصول كلامنا ، الحدس الذي يتضمن الانسجام بين الغرائز والأشياء من جهة وبينها وبين المفاهيم التي تتلخص بها الغرائز والأشياء من جهة ثانية .

فإذا كانت الحياة تنمو بتجاوب قطبيها : الطبيعة والملأ الأعلى . . . الصورة والمعنى ، تجاوباً تتصدع به عن مكنوناتها آيات « بينات » ، وكان الميل إلى الصورة قد بلغ مداه ببلوغ

نيوتن قانون الجاذبية الكونية ، فان الصبوة إلى المثل الأعلى قد تجلت في أجلى مظاهرها حين كان العربي يجنح إلى الحرية بمعنيها الانطلاق والاصالة . أفلم تبلغ الصبوة الى المثل الأعلى أشدها حين كان الاسلام والمسيحية يلقيـــان طابعهما العربي السامي على الحياة في القرون الوسطى ؟ حين كانت هاتان الديانتان تقيمان شؤون الانسانية على نظام رتيب تتعين مراتبه بمدى الصبوة الى الحقيقة الانسانية ؟

وما الرسالة إذ لم تكن اقتباس المعرفة من الملأ الأعلى وتنظيم العالم على ضوء المعرفة المثلى ؟ أفليست النبوة اصالة في المعرفة؟أو ليست البطولة اصالة في العمل؟فاذا كان للنبي حق الولاية على جمهور المؤمنين فقد تجلت في نفسه الآية تجربة مثلى ، تجربة تتوق اليها النفوس كأمنية ، ان مثل الجمهور من النبي كمثل فتاة تمارس الأمومة بألعابها طيفاً . تصبو النفوس جميعاً الى النبوة وتترقب هذه الولادة ، ولادة حقيقة المرحلة التاريخية . وإذا هم رجوا قدوم المخلص من الخارج فما ذلك إلا اعيادة المعنى المستفاض من الصميم . وما القلق المستحوذ عليهم ، كما هي الحالة في كل ولادة . إلا كالنوء الذي يبشر بقرب الموسم . ان النبوة لم تفتأ تظهر ، وانما العناية تختار المصطفى لرسالتها . اننا نحن أيضاً نجسد بالنبي أمنيتنا فنتخذ منه لناقدوه .

لكن الصبوة الى الحقيقة المثلى تتفاوت بين الناس فتتعين بمدى تفاوتها منزلة الافراد في الهيئة الاجتماعية ، مدى دل عليه النظام الرتيب في القرون الوسطى . وإذا التبس على أجدادنا قوام بنيتهم الرتيب بالفضاء ، وبدت لهم الأشياء ذات رتب ، فانهم قد استعاروا من السماء صورتها القبة تعبيراً عن صبوتهم الى المثل الأعلى بحيث التبس عليهم الرمز بالمعنى .

فقد اتحد الناس في الحقيقة طيلة القرون الوسطى ، وعنها اقتبس المؤمنون الهالة المقدسة ، وليس الاختلاف بين ذلك العهد وبين المرحلة التاريخية الراهنة إلا في اختلاف المعرفة الطبيعية ذات الطابع النسبي عن المعرفة الانسانية ذات الصبوة المثالية . ومع ذلك فان كلا العهدين قد اتخذ التجربة مدخلاً والحقيقة أمنية .

وإذا اشتقت العبقرية العربية كلمتي ذكاء (اللمعة في النفس) وذكاء (اللمعة في الطبيعة : أي الشمس) من ذات المصدر فقد دلت على ان هاتين الحضارتين ، العربية السامية واليونانية الأوروبية ، تتلازمان تلازماً يبقى فيه النظام الشمسي رمزاً خالداً للحقيقة الانسانية على أن يتحول هذا النظام النسبي

المندرجة أجزاؤه على مستوى واحد في المكان الى نظام ذي رتب متفاوتة بالرفعة في الوجدان .

ورسالة العرب في هذه المرحلة التاريخية هي خلق عالم تنسجم فيه الطبيعة مع الانسانية .

. . .

إن الحياة منظومة مغلقة في جميع الأحياء إلا في الانسان فإنها تبقى ذات صبوة إلى الملأ الأعلى مثل الانسان من الوجود بذاته كمثل الجنين من أمه ، يتصل رحمانياً بمصدر كينونته وكلمة رحمان تدل برمزها الرحم على هذا الاتصال ، وإذا كان الانسان قد أنشأ المدنية والثقافة فرسم بالأولى قاعدة كيانه في الطبيعة وحرر مشيئته من ضرورات البيئة وخلق بالثانية ذاته نامية وشيد بها صرح الانسانية صرحاً متعاليا ، فذلك لأن العبارة تقصر عن المعنى في الحياة ولأن الطبيعة لا تستنفد الملأ الأعلى .

ومع هذا فان المدنية والثقافة ، وجهتي الحضارة ، تختلفان بذلك ، فالأولى تساير الطبيعة فتبقى مفاهيمها على مستوى الحوادث الكونية ، مستوى يجعل العلم والصناعة ، اللذين هما قوامها ، يتقدمان تقدماً مطرد ، والثانية تتأرجح بين مأخذ

رموزها وبين آياتها ، بين الطبيعة والملأ الأعلى ، تأرجحاً يحلق فيه الذهن آفاق متفاوتة بالرفعة بحيث تزداد صعوبة التقدم في هذا المنحنى ، أولاً يستلزم فهم الثقافة ، فضلا عما تقدم ، ذوقاً أصيلا وخيالاً فنياً يحول بها الانسان الرموز إلى معان ويبقى بهما الذهن على اتصال رحماني بالحقيقة ؟!

إن ما أوحى إلى الشعوب السامية نظرتها في تاريخ الكائنات تلك النظرة التي بدا فيها تطور الانسانية ، على مراحل وكل من مراحلها قبة : صورتها مقتبسة من قبة السماء ، ومعناها مستلهم من وثبة الحياة ، ان ما أوحى اليهم ذلك هو مسايرة الثقافة للحياة بالخضوع المداد rythme ، لمداد يتراوح بين النوم واليقظة بين العادة والابداع ، بين الحضيض والأوج . وإذا استعار الساميون القبة من السماء كصورة مجازية يعبرون بها عن كل من مراحل التاريخ فقد رمزوا بهذه الصورة إلى بنيان الانسانية ذي القوام الرتيب ، بنيان يمس بقاعدته الضرورة كما تمس السماء الأرض بأطرافها ويدرك بصبوته الحرية ، حرية الاشراف على العلة والصيرورة ، إن هذه الصورة الشعرية لتنطوي على الحدس في صبوة الاخوان صبوة مشتركة وفي تضامنهم جميعاً بالمسؤولية .

تمثلت الانسانية في الذهن العربي عن مثال الحياة . فكما اشتق هذا الذهن كلمتي رشيم وشيخوخة اللتين تشيران الى حدي نمو الحياة الأولى من (رشم بمعنى رسم) فعبر بها عن مبدأ الحياة كمصور ، والثانية من (شاخ ، شاخ الزهر بمعنى تفتح عن مكنوناته) فعبر بها عن استكمال الحياة شروط نموها ، أدرك أيضاً بتطور كل من مراحل الانسانية معنى بديئاً في حلة جديدة ، وأدرك أن النفوس جميعاً تنزع الى معنى شؤون المرحلة التاريخية كنزعة الأنغام لدى تمثلها في الذهن إلى الهام الانشودة ، نزعة تجيب العناية عليها ببدور الآية : في النفس كان هذا البدور أم في الرسالة .

إن الرسالة من المرحلة التاريخية بمثابة نبرة الايقاع في الأنشودة : تتجلى فيها نزعات الجمهور الغامضة آيات بينة فيهتدي الناس على شفقها الى تحقيق الأمنية . مثل الرسالة في النفوس المتعثرة في الولادة ، ولادة معنى المرحلة التاريخية ، كمثل الرعد الذي يفجر بدويه الينابيع الطامسة ، ولكن متى ما انبعثت الرسالة من خلال التقاليد البالية تجلت هي في العالم نظام قيم بديئاً وأصبح المجتمع بهذا التجلي كما يصبح وجه الأرض بعد اندفاع الحمم ذا طوبوغرافية (تشكل) جديدة .

ان النبي إذ يضفي وراء تجربته المثلى على القيم الانسانية ، الخالدة منها والمستجدة ، فإنما يؤلف بينها بهذا الرواء فيجعل الطبيعة والانسانية تكتسبان وضوحاً من المعنى الذي تجسد فيه كرسالة . وكلمة عقيدة تدل بصورتها الحسية عقد على ان وجهي الحياة تتماثلان تكويناً : انعقاد الجنين في الرحم وانبثاق العقيدة في النفس . وكما تنتقل الحياة من الخلية المولدة (الجرثومة إلى الخلايا المتفرعة عنها في المكان والمتتابعة في الزمان انتقال المشعل بين الرياضيين في جولتهم حول الوطن ، تنتقل العقيدة أيضاً عبر الأجيال مستندة الى الافراد مستمدة منهم نسغ قوامها ، مثل العقيدة في انتقالها عبر الأجيال كمثل الدالية التي تعرش على مسافات شاسعة باستنادها الى اتصال الجذع بالأرض بين الفينة والفينة .

ولكن إذا التبس الرمز بالمعنى عند نهاية المطاف هبط الناس منحدرين عن مستوى الغريزة . كذلك تردت ثقافتنا في أواخر القرون الوسطى فانتهى بنا الأمر إلى تحول المعرفة إلى (سفسطة) وتحول الأخلاق إلى (دروشة) .

أما اليوم ، وقد استيقظنا من ثباتنا على ضوء الحضارة الحديثة وانقشعت عنا الأوهام بتأثير المعارف العلمية ، تلك الأوهام التي تحصل من التباس الوجدان بالطبيعة ، فما علينا

إذن إلا استكمال شروط هذه اليقظة بالعودة إلى الحياة في ينبوعيها : الإنسانية والطبيعة . ونحن إذا كنا نبلغ الطبيعة بالعلم فإننا نرتقي الى الانسانية بفقه تراثنا . ومتى استكملنا شروط نهضتنا بانشاء قاعدة كياننا إنشاء متناسباً مع تقدم العلم والصناعة تمكنا من خلق ثقافة إنسانية رفعتها على مقياس فسحة قاعدة حياتنا في الطبيعة وعندئذ نتمكن من ردع الثقافة الحديثة عن شططها في فهم الإنسان كما ردعنا العلم الحديث عن شططنا في فهم الطبيعة .

ولكن بعثنا لن يكون بعث فعالية تتناول سطح الحياة وحسب . كما هي الحال في الأمم التي انطلقت قواها بتأثير التقدم في العلم والصناعة . بل انه سيكون بعث فعالية تتجه نحو الصميم بحيث ينكشف معنى المرحلة التاريخية معرفة ورسالة انكشاف الهام الأنشودة في الوجدان شعوراً وحركة ،

لقد قيل انه إذا ما استكمل الجنين شروط نموه في الرحم فتح فاه فهبط عليه الروح من الملأ الأعلى فطلع على العالم كائناً حيا . انه لقول ينطبق على الأمم التي تحررت فيها كوامن الحيـــاة فأخذت ترتقب معنى ثقافتها من رسالة العرب .

الوضع البالي

أصبح مثلنا ، نحن العرب ، كمثل أهل الكهف عندما استيقظنا من سباتنا ، سبات انزوت فيه أجيالنا عن سير التاريخ عصوراً مديدة ، فبدت مظاهر حياتنا بالية ، عرفنا وتقاليدنا ، مؤسساتنا الإجتماعية والإقتصادية ، حتى قوالب فكرنا وعملنا وكأن تراثنا قوقعة تصدعت وتداعت لدى اصطدامها المفاجىء بموجة المدينة الحديثة . حتى لقد أصبحت قشور هذه القوقعة تحجبنا عن حاضرنا وتعوق ملاءمتنا للبيئة المستجدة .

ولكن أحداثنا أخذوا يتطلعون إلى هذه الموجة وهم يصبون إلى غاياتها صبوة الاصداف بين فترات الأمواج الى الشمس التي تجدد بها حيويتها ، مستسلمين لتياراتها مع النفرة من ماضيهم نفرة متزايدة .

أما الشيوخ ، وقد التبست نفوسهم بانحاءات ذلك التراث

وألفت اعوجاجاته ، فقد وقفوا مبهوتين أمام موجة المدنية ، حيارى من طغيانها ، مستوحشين من معظم مظاهرها .

لقد استحوذ القلق على أبناء الجيل في هذان البحران ، وأصبح اضطراب الجمهور متواصلاً ؛ تتجاوب أصداؤه بين خليج البصرة وجبل طارق . وإذا كانت النفوس المضطرمة لم تبلغ غاياتها من تحقيق مايكمن فيها من أمان وآمال فان القيادة نفسها قدقصرت عن ادراك شأنها حتى تستقل عن ارادة الأجنبي .

ومع ذلك فلم يتمكن اليأس من قلب تتدفق فيه الحياة وتفيض . وهل عرف التاريخ قوماً أغزر من العرب حيوية وأبقى منهم على الدهر ؟! .

فبينما تظهر الشعوب على مسرح الوجود ثم تتوارى عنه تسطع الامة العربية على العالم منارة يهدي شفقها الشعوب سواء السبيل .

. . .

في مطلع القرون الوسطى ، حين فاضت الأمة العربية على العالم بابنائها طوائف ، تبرىء الشعوب من آثامها وتطهرها من افرازها كفيض البحيرة على أطرافها ، اعتلت الشعوب الفيض اعتلاء الحشرات الضامرة على الموج فسكبت في الينبوع سمومها حتى أفسدت مبعث انتعاشها .

لقد استغفلنا الاغيار ابان نهضتنا ، استغفلونا اذ كنا نزهو بروعة بطولتنا فغشوا حقيقتنا كما يغشي البرغش الزهر المتفتح على طلعة الشمس . وأحاق الدخلاء بنيان أمتنا بسموم أفرزتها قرائحهم المتردية فأمسى مثلنا كمثل خوارق الحيوانات في الأدوار القديمة ، كمثل حيوانات نسجت حولها الحشرات قوقعة من الافرازات لتجعل من جثمانها فريسة يتطفل عليها أحفادها .

لما طغى الأغيار بيئتنا انحرف قوام انسانيتنا وتجوفت مؤسساتنا من جراء الانحراف حتى جف فيها نسغ الحياة . وتحول تراثنا اذ ذاك الى ظلف يعوق الامال عن الانطلاق ، وتردى مجتمعنا الى مستنقع تعيث فيه الانانية . ان الأنانية في النفس انما هي نتيجة تغلب الظروف على الفرد ، ان هي الا شعور بالانهيار ، وتقلص في الرحمة ، وعمه في البيصرة . في تلك العهود المظلمة طمست القيم النبيلة باهمال عبارتها وانحدرت أصول الحياة من جراء هذا الاهمال ، حتى تحول الفيض الى تقوى .

ولكن هل وقف الاعاجم عند ازاحة مجتمعنا عن حقيقته ؟ لا ، ولا عند اخراج العربي عن محور شخصيته . فقد نفذوا الى صميم أصالتنا ، فبالهجانة أفسدوها وبالانتخاب المتدني استنزلوها الى أن غارت في بنيتنا قواعد خصائلنا الكريمة ،

ولما طغى الدخيل والهجين على بيئتنا تقلصت مشاعرنا الرحمانية وعمهت بصائرنا في الشؤون الانسانية . جدب وعمه ، بهما تمسخ الحياة وتتحول من الازدهار الى القرمة .

لقد زاغت المؤسسات العامة يوم ذاك عن حقائقها واختل نظام القيم في مجتمعنا ، بحيث انحط العربي عن افق رفعته في التربية والفطرة فأمسى مثله كمثل فراشة خلعت زينتها وجوانحها على الانامل فسقطت على الارض هامدة . ولئن عوضت عن حسنها بدرع يقي ماتبقى لها من الحياة فانها ظلت في الأوحال دودة زاحفة . في العهود السحيقة حين زاغت مظاهر الحياة عن الحقيقة تقلص العربي عن المدينة آوياً الى الأرياف .

يتدنى الانسان اذا انفلتت في منظومة الحياة الميول الدنيئة من ولاية الميول الرفيعة واذا تحول محور الحياة من البنية الى البيئة بحيث تتراخى صلة الرحم وتتلاشى الأحساب والانساب فيصبح الناس عندئذ رعاعاً يلبسون لكل حالة لبوسها .

وفي جو كهذا تفرض على الوجدان قواعد الفكر والعمل فيبدو على مناحي الحياة الهرم كرهبة من الابداع ونفرة من الطبيعة واعراض عن المحسوس واسترسال في الأحلام حتى يصبح الناس يوجسون من خطر الموت في كل حركة .

هكذا كانت القرون الوسطى المحتضرة ، تحولت فيها شؤون الحياة الى تقليد وذكرى .

. . .

أصبح العرب على هذه المرحلة التاريخية صبوح تقف برز من قوقعته ولما يتحرر من قشورها ، يحملون تقاليد القرون الوسطى ، ويحملونها بالية . يحملون تقاليد عصور أعرض فيها الانسان عن الحياة في ينبوعيها : الطبيعة والانسانية ، فرقت بنيته بهذا الاعراض ، رقت باقتراب قطبيها : الصورة والمعنى فانتهى الامر بذلك الى الدروشة في العمل والسفسطة في المعرفة. دروشة وسفسطة ، كلاهما من الدخيل وكلاهما يكشف بنشأته عن حالة طارئة .

التبست على الناس في القرون الوسطى الحقيقة بعبارتها فانتقلت قدسية المعنى بهذا الالتباس الى الظروف التي تجلى فيها بطلا تجلياً أخذت الاجيال تنسج على مثاله هويتها نسخاً باهتة بحيث تردى الناس وانتكست الأجيال على سكب مشاعرها في قوالب الماضي البالية .

ومتى كانت الحياة ترديا وانتكاسا ؟!

ولما انصرف الناس الى قشور الحياة . المجردات في المعرفة والزهد في العمل ، أخذت نفوسهم تقتات من فضلات العصور البائدة . وانهم كانوا يرجون ، عبثاً ، الخلاص ببتر الصلات بين الحياة والطبيعة ، بترا تتفرغ به نفوسهم لرؤية باريها . ان الجسد ليس من جهنم كما زعم الناسك بل هو قاعدة النفس في الوجود وصورتها . به تصدر الرحمة والعدل اللذان هما قوتها . انما الناسك كمن يعيش في المنام .

فمتى تبرم الانسان من الحياة ونبذها توارث عنه وحرمته من بهجتها وسرورها . ان آفات القرون الوسطى هي الثنائية في المعرفة والطبقات في الكون وتراخي الصلات بين ظواهر الطبيعة وبين أبناء الامة فذلك ان دل على أمر فانما يدل على صورة نفس هزيلة أدركت من خلال بنيانها المتداعي ، الوجود مشتتا هامدا .

واذا جفت الحياة في العهود السحيقة وفرضت الواجبات على الناس وتحول الابداع الى بدعة وامست الديانة ترويضاً على الذل والاستكانة ، فذلك لان الحياة قد زحلت فيها المظاهر عن محورها وانفصمت العبارة عن المعنى . ومتى كانت الحياة اجتراراً وتقوى ؟ أو متى كانت الديانة تعزية بالاخرة ؟!

لما ضاق على الناس أفق الوجود تقلصت فيهم الحياة الى ظلف من الأنانية مخلدة الى السكينة حتى الجمود مستسلمة للظروف خاضعة لأراجيفها .

استسلام وخضوع : كلاهما يجعل الانسان ماديًا وانانيًا ودنيًا .

. . .

استيقظ أبناء هذا الجيل على طلعة المدنية الحديثة يقظة الدوافن (الزواحف ذات الدم البارد) من سباتها على تباشير الربيع . وليتها لم تكن يقظة قد رافقها احتلال الأجنبي لبلادنا.

كانت فرنسا تزعم بانها تحمل الينا منارة الحضارة واذا بها تضلنا عن أصول العلم وتقصينا عن منهل الثقافة . كانت سياسة الانتداب قد عجلت بانهيار الرداء البالي عن بيئتنا ، ذلك الرداء الذي نسجته العهود البائدة من افرازاتها . وذلك بتشهيرها بأولئك الذين تمثلت فيهم قيم الماضي البالية . فقد أغوت رجال الدين والوجهاء واصطنعت الزعماء ثم فضحت هوياتهم المزيفة . ولكن هذه الدولة كانت تبتغي من عرض الزعماء عراة من أقنعتهم فطم الجمهور عن السياسة .

ولكن هل تركن العواصف في البراري التي اقتلعت أشجارها .

توهمت فرنسا بأنها تضمن بهذه السياسة مصالحها ، اذ كانت تدرك من خلال بنيانها الفاسد مناحي ضعفنا . فهل كانت أسباب محنتها الأخيرة غير نفس أسباب انهيار وضعنا !

ان سياسة الانتداب كالسيل الذي يخلع الصخور المتراكمة هرما فيكشف عن المعادن الكريمة المخبأة تحت الردم والا فهل كانت عظمة المسيح قد سطعت ببهائها على العالم لو لم يحتل الرومان اورشليم ؟! أم كانت الشعوب الدنيئة رأت في يهود صورتها المتردية .

لكن المسيح لم يجد حوله في الجمهور اليهودي، من لم يخطيء ليلقي على الزانية حجراً . في حين أن عرب الجاهلية تفرد من بينهم « ابورغال » بخيانة قومه فاستحق لعنة الأجيال وظل ضريحه يتلقى ، الى اليوم ، حجراً من كل عابر سبيل .

ولنعترف فيما بيننا ، اليوم ، بمن اصبحنا اشبه . أليهود أم بأجدادنا العرب ؟ اليس القلق المستحوذ علينا هو شعورنا بتخلفنا عن حقيقتنا ؟!

ان الامة التي تخضع لمشيئة غيرها تتلقى منه قواعد فكرها

وعملها فيمسخ أبناؤها ، عندئذ ، حرافيش (جوكر) لدى من يقود شؤنها . ان الأمة التي تفقد استقلالها تتخلى عن مقدساتها فتزول بهذا التخلي حكمة وجودها . أمـا أبناؤها فلن يبرروا تخاذلهم بالغفلة أثناء المحنة الا حين يغسلون عارهم بدمائهم .

واذا كان الجمهور العربي لم يفتأ يضطرم فيسطع كوكباً أثناء المحنة (الانتداب) فانه سرعان ما كان يتناثر تناثر اليراع في مهب الرياح . أو من العجب أن يكون الامر كذلك ؟! أفليس الزعيم صورة الجمهور ، الصورة التي يرى فيها الناس آمالهم وامانيهم مجسدة ؟ ! ولكن اذا ساءت المرآة تشوه الوجه وأصبح قبح المنظر يبعث بشعور النفرة من صاحب السحنة وكذلك الزعيم اذا خس وتدنى اثار نفرة الجمهور من الشؤون العامة . وكلمتا : « وجه » و « وجيه » تشيران بأصلها المشترك الى أن الوجيه من الأمة بمثابة الوجه في الجسد .

وهل كانت سياسة الانتداب تقف عند هذا الحد أم انها تعدته الى دعائم حقيقتنا ؟!

لقد تسلط الاجنبي على مؤسساتنا القومية وحرفها عن غاياتها

الاصلية . ولقد نفذ الى مصيرنا فأخضعنا لمشيئته خضوعاً فقدت به قوام انسانيتنا .

تفككت في عهد الانتداب أواصر الرحم وضئولت عواطف المودة بين ذوي القربى وزالت الثقة بالنفس ، فانحدر الناس من جراء ذلك حتى الدرك الاسفل ، ولما سطت النزعات المادية على مجتمعنا تبدل فيه نظام القيم من رتيب الى متدني فانتهى الامر بان أصبح الملموس معياراً للحقيقة وبأن قامت الوسيلة مقام الغاية . فأينما اتجهت رأيت القبح باديا على مظاهر الحياة . فكم كنا نستغيث باسرافيل كي ينفخ في هــذه « الجبانة » [1] فيبعث بهيا كلها أحياء .

ومع ذلك لم يأخذ اليأس منا مأخذا . وكيف يكون ذلك ونحن أبناء أمة أصولها في الملأ الأعلى وبنيانها مستفاض فيضاً !

فمهما انحرف المجتمع العربي عن أصوله وزاغ العربي عن محور شخصيته فالعروبة تبقى متصلة بينبوع الحياة مستمدة منه نسغ كيانها . ان الأمة العربية لم تكن شهابا قد خطف البصر بسرعته ، ثم مضى كما خيل للأعاجم ، بل انها منارة يتموج شفقها تموج الحياة ذاتها .

. .

(١) قبر يضم أجداث عدد من الموتى .

مثل الأمة كمثل أبي الهول (اسفنكس) في الاسطوره المصرية ، تتجدد في كل جيل من أجيال أبنائها كما كان يبعث اسفنكس حياً من رماده في كل سنة . ان الامة تبقى بنجوة من عوارض المكان والزمان اذا كانت جذورها في الملأ الأعلى وان تخس النفس أو تجف الحياة فذلك لان المظاهر لم تنسجم مع أصولها . يعترى الناس الضمور من تباين ما انطوت عليه نفوسهم من تيارات المرحلة التاريخية ، ومن تخلف ميولهم عن اغراضها ، وكما يغور الشعور في الهيجان من تقصير البوادر عن البيان ، وكما يتشنج الوجه من تخلف العبارة عن النية في النفس يحصل الهرم في الثقافة من ابتعاد الافكار عن الحقيقة .

ان الحياة تستمد قوتها من البيئة . فان بقي الانسان صاحب الحياة في عزلة عن تيارات المدنية أو محجماً عن الاتصال الرحماني مع اخوانه في الهيئة الاجتماعية أصبح فاتر الحس فاسد البنية . والمجتمع ذو النزعات الانعزالية أن تأخر في اندثاره بتأثير ما لديه من تراث مثله مثل الكوكب الذي ينثر نوره في العالم حتى ما بعد انطفاء مصدر الاشعاع ، فسرعان مايستحيل الأفراد أنفسهم الى رعاع متطفلين ، يستعيرون عن الغير ثقافات طارئة ، منزوين في ملجأ يلائم طبيعتهم المتردية .

وهل ينهض الطائر الا بما ينبت عليه من ريش ؟ أم هل يحرص الانسان على الحقائق التي لم تنبعث عنه شعوراً ؟

ان النفس ، أن تزحف مذعورة ، فان الذعر من تجويفها. فانها تحمل جسمها المتردى دفيناً الى القبر . واذا نزع أحداثنا الى التحرر من هذه البيئة فانما هذه نزعة النقف الى خلع القشرة التي تعوقه عن الحرية . فبالحرية تنمو النفس وبها تشتد ذكوة الحياة . وليس الانقلاب الا الثورة على الدخيل والبالي اللذين يعوقان المرء عن بلوغ الأمنية .

وما شأن الطب ؟ اذا لم يكن ازاحة الدخيل عن الجسم وايقاف أذاه ريثما تعمر الحياة عطبها :

وأما الحرية فتحصل من انسجام مظاهر الحياة مع أصولها انسجاماً تتجاوب به الفكرة مع عبارتها فيفيض الوجدان بهذا التجـــاوب شعوراً يرتقي عليه صاحب الفيض نحو غايته متفائلا . انما البعث هو بعث الحياة المتبلورة تجلياتها رموزاً . فمثل النفس من حالاتها كمثل الشمس التي توقظ الحياة الراقدة في الاصداف .

. . .

تنزع الحياة الى تحقيق ما يمكن فيها من أمان وآمال

وتحمل ، بنزعتها ، ابناءها على تذليل الصعوبات متعاونين ؛ حتى اذا ما عاقها وضع بال أو عرف دخيل أو ميل هجين ثارت عليه وأشركت في ثورتها المنحدرين منها والحاملين ميولها . تنشىء الحياة بيئتها نزاً فتجعل منها جواً يزهو فيه أبناؤها متكاملين .

ولكن اذا قصر العرب عن معالجة شؤونهم في عهدي الاحتلال العثماني والانتداب ، فقد تبنى الدخلاء وهم مقنعون بالعروبة والاسلام ، الشؤون العامة فألهونا بضجة مصطنعة عما كان يكتنفنا من أخطار . لقد تآمر الأغيار علينا انتقاماً لدولتهم ، الدولة العثمانية واستكلبوا على رعاية الأجنبي حرصاً على الاملاك التي سلبوها من أجدادنا ، وقد اصطنع أحفاد العثمانيين من بيئتنا جواً موبوءاً تترسب فيه النذالة والسفالة سبلا حتى أصبح الميل سوياً . وعبثاً كانت الضحايا تهدر تلو الضحايا في سبيل الغاية .

وهل ترك الأجانب لنا متسعاً من الوقت لرؤية مشاكلنا ومعالجتها بما تستحق من العناية ؟

أما اليوم ، وقد آل أمرنا الينا . على الرغم من كل مؤامرة ودسيسة ، فقد أصبح من واجباتنا الاولى ان نجابه المشاكل التي تعترض نهضتنا فندرأ الأخطار التي تحيق بكياننا مجابهة

نشرك فيها الجمهور بالعمل من أجل تقويم الاعوجاج .

. . .

وما هي مشاكلنا ؟ مم نشكو نحن العرب .

ان الشكوى التي تدور على الافواه هي عن تخلفنا عن الأمم في نهضتها ؛ فشبابنا يشكو من رجعة الجمهور القهقرى الى ظروف قد فات أوانها ، يشكو من سكب المشاعر المستحدثة من المرحلة التاريخية الراهنة في قوالب الماضي البالية . والجمهور يضج من تفرق أمتنا الى طوائف ومن تباين النزعات في حل أمهات المسائل .

أكانت الحياة لتنهج سبيل الهرم فتستغرق فيا مضى ؟ أم كانت لتنشىء المستقبل على ضوء العبر ؟

أكانت الأمة لتقوم على التشتت والتفرقة ؟ أم كانت لتجمع شملها فتمهد سبيل الارتقاء الى تحقيق الأماني ؟

ان القلق المستحوذ على نفوسنا إنما هو شعورنا بانحراف مؤسساتنا عن أصولها ، وتحول تراثنا الى رموز هائمة هيام الأوراق المنفصمة عن أغصانها .

ومتى كان التراث ليحجب النفوس عن منهل الحياة ؟ وهو الذي يعينهم في صبوتهم الى المثل الأعلى .

ان ما يبدو من فتور في التحسس ومن ابهام في الشعور إنما هو نتيجة حياة نحياها على الهامش منزويين عن سير التاريخ .

ان ما يبدو من قبح وبشاعة على مظاهر حياتنا ليس سوى رمز هذا الانحراف . والى هذا الانحراف يرجع العقم في مناحي حياتنـا ، عقم في الأدب والفن ، عقم في التشريع والسياسة ، عقم في العلم والصناعة افليس كل ما لدينا مقتبساً عن الغير أو مستعاراً ؟

وكيف نتمكن من حل مشاكلنا وقد جفت الحياة في شيوخنا ، ونفذ شعاعها في كهولنا ؟

لقد أبقى الدهر لنا بنجوة عن الدخيل والفساد البالي النساء والأطفال والعمال . فالتوجه إليهم بعنايتنا فنذكي فيهم الشعور بالعزة القومية وننمي فيهم الحرص على المصالح العامة . وإذ ما أنطلقت القوى الكامنة في الجمهور ، وفيه غزرت الحياة لقربهـا من الينبوع ، يتدفق الشعور كالسيل الذي يقلع كل ما تراكم في مسيره من عثرات . مثل الجمهور في سيره كمثل الثلاجة التي تقلع الصخور . فتكتسب بالعثرات ، إذا اندرجت فيها ، قوة تمهد بها السبيل . وبهذا التيار تنجرف التقاليد

البالية والعادات الدخيلة على البيئة وحتى الذين تعثرت بهم الأمة في نهضتها .

ولما كنا نشترك في بعض هـــذه المشاكل مع الأمم الأخرى ، فقد أصبح الواجب يدعونا الى الاستفادة من تجارب السباقين في مضمار الحضارة ، من التجارب التي تحرر بها الفرد من تقاليد البيئة واستبداد الطغاة ، من التجارب التي استقلت بها الأمم بحسب وجهة نظرها في الحياة .

. . .

ملحق

نقدم فيما يلي « مقتطفات من كتب أشهر المستعربين أمثال ابن المقفع ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي . ونترك للقارىء أمر تقدير ما كان لهؤلاء الكتاب من تأثير سيء على الفكر العربي وعلى أسلوب بيانه :

ابن المقفع :

قال في كتابه (الأدب الكبير) : « إن ابتليت بصحبة السلطان ، فعليك بطول المواظبة في غير معاقبة ، ولا يحدثن لك الاستئناس به غفلة ولا تهاوناً » ، تبصر ما في الوالي من اخلاق التي تحب له والتي تكره ، وما هو عليه من الرأي الذي ترضى له والذي لا ترضى ، ثم لا تكابرنه بالتحويل له عما يحب ويكره الى ما تحب وتكره » ، « وإن ذكرك ذاكر عند السلطان بسوء في وجهك أو في غيبتك ، فلا يرين السلطان ولا غيره منك اختلاطاً لذلك ولا اغتياظاً ولا ضجراً » ؛ « جانب المسخوط عليه والظنين به عند السلطان ولا يجمعك واياه مجلس

ولا منزل ، ولا تظهرن له عذراً ولا تثنين عليه خيراً عند أحد من الناس » ؛ « وإذا كلمك الوالي فاصغ إلى كلامه ولا تشغل طرفك عنه بنظر الى غيره ، ولا اطرافك بعمل ولا قلبك بحديث نفس واحذر هذه الخصلة من نفسك وتعهدها بجهدك » ؛ « لا تشكون إلى وزراء السلطان ودخلائه ما اطلعت عليه من رأي تكرهه له فانك لا تزيد على أن تفطنهم بهواه أو تقربهم منه ، وتغريهم بتزيين ذلك والميل عليك معه » ؛ « فذلل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي السلطان وقررها على ان السلطان إنما كان سلطاناً لتعصبه في رأيه وهواه وأمره ولا تكلفه اتباعك وتغضب من خلافه إياك . » ؛ لا تكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعته في المكروه عندك وموافقته فيما خالفك وتقدير الأمور على أهوائه دون هواك على أن لا تكتمه سرك ولا تستطلعه ما كتمك وتخفي ما اطلعك عليه عن الناس كلهم حتى تحمي نفسك الحديث به وعلى الاجتهاد في رضاه والتلطف بحاجته والتثبيت لحجته والتصديق لمقالته والتزيين لرأيه وعلى قلة الامتعاض لما فعل إذا أساء ، وترك الامتهان لما فعل اذا أحسن ، وكثرة النشر لمحاسنه وحسن الستر لمساوئه والمقاربة لمن قارب وان كانوا بعداء

والمباعدة لمن باعد وإن كانوا قرباه والاهتمام بأمرهم وإن لم يهتموا به والحفظ لهم وإن ضيعوا والذكر لهم وإن نسوا والتخفيف عنه من مؤونتك والاحتمال له كل مؤونة والرضى منه بالعفو وقلة الرضا من نفسك له إلا بالاجتهاد » .

. . .

الفارابي : من كتابه « المدينة الفاضلة » .

« القول في تعاقب الصور على الهيولي » .

وعلى هذه الجهات يكون وجودها أولاً فإذا وجدت فسبيلها أن تبقى وتدوم ولكن لما كان هذه حاله من الموجودات قوامه من مادة وصورة ، وكانت الصورة متضادة . وكل مادة فإن شأنها أن توجد لها هذه الصورة وضدها فصار لكل واحد من هذه الأجسام حق واستئهال بمادته فالذي يحق صورته ان يبقى على الوجود الذي له والذي يحق له بحق مادته أن يوجد وجوداً آخر مضادة للوجود الذي هو له وإذا كان لا يمكن أن يوفي هذين معاً في وقت واحد ولزم ضرورة أن يوفي هذا مرة فيوجد ويبقى مدة ما محفوظ الوجود ثم يتلف ويوجد ضده ثم يبقى ذلك وكذلك أبداً فانه ليس وجود أحدهما أولى من وجود الآخر ولا بقاء

الآخر إذ كان لكل واحد منهما قسماً من الوجود والبقاء ، وأيضاً فان المادة الواحدة لما كانت مشتركة بين ضدين وكان قوام كل واحد من الضدين بها ولم تكن المادة أولى بأحد الضدين دون الآخر ولم يمكن أن تجعل لكليهما في وقت واحد لزم ضرورة أن تعطي تلك المادة أحياناً هذا الضد وأحياناً ذلك الضد ويعاقب بينهما فيصير كل واحد منها كان له حقاً عند الآخر ويكون عنده شيء ما لغيره وعند غيره شيء هو له فعند كل واحد منهما حق ما ينبغي أن يعيد إلى كل واحد من كل واحد فالعدل في هذا أن يوجد مادة هذا فيعطي ذلك أو يوجد مادة ذلك فيعطي هذا فيعاقب ذلك بينهما فلأجل الحاجة إلى توفية العدل في هذه الموجودات لم يمكن ان يبقى الشيء الواحد دائماً على انه واحد بالعدد فجعل بقاؤه الدهر كله على انه واحد بالنوع . . .

. . .

ابن سينا في كتابه النفس :

في تقرير انه ليس شيء من القوى النفسانية بحادث عن امتزاج العناصر بل وارد عليها من خارج الأشياء المختلفة مهما تركبت وحصل في المركب صورة فإما أن تكون

مائلة إلى شيء من صور البسائط أو لا تكون كذلك . فان لم تكن كذلك فاما أن تكون حاصلة عن جملة صور البسائط بحسب مفارقة التساوي وإما أن لا تكون منتمية إلى شيء من صور البسائط بل تكون صورة زائدة على مقتضى صور البسائط بحسب اعتبارها بالبسائط وبحسب اعتبارها بالتركيب . أما مثال القسم الأول فالطعم المائل إلى المرارة عند تركيب صبر غالب وعسل مغلوب . وأما مثال الثاني فاللون الأدكن المتكافىء في النسبة إلى طرفي البياض والسواد الحاصل عند تركيب أبيض وأسود متفاوتين . ومثال الثالث من الأقسام المذكورة فنقش الخاتم الحاصل في الطين المركب من التراب اليابس والماء السائل عند اختلاطهما فمعلوم أن النقش الحاصل في الطين ليس بمقتضى صور البسائط لا إذا اعتبرت بحسب التركيب ولا إذا اعتبرت بحسب البسائط ، ومعلوم أن القسم الأول إذا كان واقعاً ببسائط متضادة الصور لا بحسب الاختلاط بل بحسب الامتزاج ان الأضداد المغلوبة لا يكون لها في ذواتها أو في تأثيراتها الخاصة بها وجود لامتناع سريان ضدين في حامل واحد معاً بل يكون غاية تأثيراتها إحلال النقص بقوة الغالب

فقط . ومعلوم أن القسم الثاني مهما وجد أوجب التكافؤ والتساوي في مقتضى أفاعيل صور البسائط ومقتضى انفعالاتها .

ومعلوم أن القسم الثالث إذا وقع لم يكن حاصلاً من ذات المركب إذ ليس له لا بحسب اعتبار صورته البسيطة ولا المركبة فإذن هو مستفاد من خارج .

فواجب إذ قدمنا هذه المقدمات أن نخوض في موضوعنا فنقول ان النفس إنما حصلت في الاجرام المركبة المتضادة الصور ولا يخلو حصولها فيها من أحد الأقسام الثلاثة لكنه ليس من القسم الأول وإلا فهو حرارة أو برودة أو يبوسة أو رطوبة وقع في أيها كان نقص ما . وكيف تستعد إحدى هذه القوى أن تصدر عن نفسها الأفاعيل النفسانية مع حصول النقص التركيبي وما كانت شغلت به حالة كالها وقوتها بل كيف تحرك شيء منها إلا إلى جهة واحدة فقط ولماذا وجب مقتضى الممانعة مع الحركات النفسانية حتى تورث ممانعتها كلالا إذ تأثير شيء واحد بالذات لا يقع فيها ممانعة . ولا هو من القسم الثاني إذ وجود القسم الثاني من المستحيل وذلك ان العناصر مهما تركبت على تساوي القوي أوجب ذلك فيها بطلان جميع التأثيرات المنسوبة إلى كل واحد منها

فلم يكن داخلي عن المركب ان يتحرك لا إلى جهة العلو
وإلا فالحرارة غالبة والبرودة مغلوبة ولا إلى أسفل وإلا
فالبرودة مغلوبة بل ولا أن يسكن في الأجياز الأربعة .
وإلا فالطبيعة الجاذبة اليها فيه وقد قيل ان جميعها متساو
في الغلبة والمغلوبية وهذا خلف فاذن هذا الجسم لا ساكن
ولا متحرك وكل جسم أحاط به جسم فإما ساكن وإما
متحرك وهذا أيضاً خلف وما أدى إلى الخلف فهو خلف
فنقيضه وهو قولنا ان ذلك ممتنع صادق . فاذن ليس على
سبيل القسم الثالث وقد قيل إن ما كان على سبيل القسم
الثالث فهو من خارج . فالنفس مستفادة من خارج وذلك
ما أردنا أن نبينه .

. . .

الغزالي : في كتابه المنقذ من الضلال

ولو قيل لواحد (من الطبيعيين) : « هل يجوز أن
يكون في الدنيا شيء ، هو مقدار حبة ، يوضع في بلدة ،
فيأكل تلك البلدة بجملتها ، ثم يأكل نفسه فلا يبقى من
البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه » لقال : « هذا

محال وهو من جملة الخرافات وهذه حالة النار ، وينكرها من لم ير النار إذا سمعها ، وأكثر عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي ، فلم لا يجوز أن يكون في الأوضـــاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

د	ط	ب
ج	ه	ز
ح	ا	و

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

يكتب على خرقتين لم يصبهما الماء ، وتنظر اليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج . وقد أقروا بامكان ذلك وأوردوه في كتـــاب « عجائب الخواص » وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قراءته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب .

البعث القومي

بدأ البعث القومي في اوروبا ببعث تراث الأجداد ، التراث الذي نسجته الحياة سليقة دون تدخل الاغيار . وكانت الشعوب الاوروبية قد اعتنقت المسيحية في القرون الوسطى وظلت تخضع لقوانين الكنيسة حتى مطلع القرن التاسع عشر ، إذ ذاك كان فريق من هذه الشعوب وهو فريق غربي اوروبا يفصح اعلامه عن رأيهم باللغة اللاتينية لغة الكنيسة الكاثوليكية ، وكان الفريق الآخر وهو شعوب شرقي اوروبا يفصح عن رأيهم باللغة اليونانية لغة الكنيسة الارثوذكسية وأما لغة الأم فكانت مهملة وذلك كان السبب في بقاء سواد الشعب مقصراً عن المستوى الذي تتطلبه المهام العامة .

وإذ ذاك كان تاريخ اليهود المسجل في التورات ينبوع المسيحية ومستندها كانت قصص الأنبياء تعوض عن مناقب

الأجداد وأساطيرهم . وكانت أعمال بني اسرائيل مصدر وحي الأدباء والفنانين وهل من دليل على سلطان التورات على النفوس أبلغ من تسمية الاوروبيين اولادهم باسماء أنبيـــاء اليهود تيمناً بهم .

ولكن لما دب الشعور القومي في ارجاء اوروبا ، إثر الثورة الفرنسية ، هبت الجماعات تطالب بالاستقلال والحرية . كان من جراء هذا التحول ان قام فيخته في المانيا يعيد الى لغة الأجداد اعتبارها مظهراً تفوقها على غيرها من اللغات . واذا قورنت محاضرات فيخته في هذا الصدد ، مع قرار المجمع العلمي الالماني ببرلين ، قبل جيل واحد . ذلك القرار الذي كان قد قضى باحراق كتاب فلسفي موضوعاً في اللغـــة الالمانية ، بحجة ان لغة البرابرة التي هي اللغة الالمانية لا تصلح للتعبير عن موضوع نبيل كالفلسفة ، إذا قورن الموقفان في الجيل الواحد من نفس الازمة ادرك القارىء مدى التحول في حياة الشعوب المعاصرة . وكان من جراء هــذا التحول ان قامت طليعة الشعوب تحيي لغة الأجداد فتسجل المفردات في المعجم والقواعد في النحو ، بغية ادراك ما بلغته الشعوب التي بدأت يقظتها في عهد النهضة والاصلاح .

كان الغرض الأول والأساسي من حركة البعث القومي هو تأكيد استقلال الأمة بالمصير عن كل سلطان مفروض عليها كسلطان النمسا على يوغوسلافيا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا مثلاً . ولما كانت الملوك تستعين بالكنيسة على فرض سلطانها على من يدين بدينها ، كما كانت الدولة العثمانية تستخدم رجال الدين ضد الشعوب المطالبة بالاستقلال كالعرب وغيرهم من الأقوام ، كان المناضلون في سبيل الاستقلال يذكون روح النضال عند الجمهور باذكائهم ذكرى أبطال الأمة ومناقب الأجداد ، وكان النوابغ يؤكدون أهليـة الأمة للاستقلال باظهارهم سمو الفطرة التي فطرت عليها أمتهم في جاهليتها ، قبل اعتناقها المسيحية وكان ذلك كله يستلزم الكشف عن عبقرية الأمة ، عن استعداداتها وامكانياتها من خلال وقائعها وتجلياتها في الآداب والفنون .

ولكن الحال بالنسبة الينا كعرب يختلف عما كانت تعاني الشعوب الاوروبية في نهضتها . كان المناضلون في هـــذه الشعوب يستندون في نضالهم الى استقلال عبقرية أمتهم عن وجهة نظر كل من الكنيسة والدولة المحتلة واما نحن فكيف نميز بين جاهليتنا والاسلام ؟ .. بل كيف نميز في شخص

محمد بطل العرب من رسول الاسلام ؟ وعلى (م) اعتمد المسلمون في فتوحاتهم ؟ أعلى التقوى أم على المروءة شعار التربية في الجاهلية ؟ .

هذا ، وإذا كانت الشعوب المضطهدة قد وجدت في تراثها عاملاً مميزاً لها عن أعدائها وحافزاً لاثارة جمهورها ضد خصومها ، فاننا نحن العرب ، لسنا بحاجة لبينة نتميز بها عن المعتدين على حقوقنا ان معالم شخصيتنا القوميـة أوضح من معالم شخصية خصومنا ، وان لغتنا لم تقصر عن الافصاح عما يختلج في نفوسنا ، حتى لقد كان تراثنا منارة يهتدي على شفقها الناس سواء السبيل . وان كل ما نفتقر اليه في بعثنا هو ان نبلغ مستوى الوعي عنـد أجدادنا القدامى أن نبلغ مستواهم في وضوح البصيرة وفي قوة الشكيمة وكيف السبيل الى ذلك ؟ .

ان لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا والتي هي مستودع لتراثنا فمالنا الا نعود ونحياها عن وعي حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة ، ان مثل كل كلمات لغتنا كمثل البذرة من النبات ، يضمر فيها المعنى نمور

الحياة في البذرة ، فليس للذهن الا ان يتمثلها حتى اصبح الخيـــال من استجلائه معناها بمثابة الموسم من استجلائه كوامن الحياة .

ولما كان صرح ثقافتنا ، من فقه وآداب وفنون ، قد شيد على المعاني المنطوية في الكلمات وكانت المعاني ذات جذور في صميم الحياة مستقلة كل الاستقلال عن خطل العقل في اجتهاد المجتهدين فقد أصبح البعث عندنا في العودة الى الينبوع ، الى الحدس المتضمن في الكلمات كالعدالة والنظام والشعر والجمال الخ . .

والذي تدل عليه الكلمات المعبرة عن المحسوس في نفس اسرة الكلمة كدلالة ذكاء الشمس . على الذكاء . ودلالة العقل ــ الرباط على العقل ، ودلالة الشارع على الشريعة الخ .

أو ليست لغتنا على مثال الشعر تبعث المعاني حية في النفس ؟ الا تجمع كل من كلماتنا خصائص القصيدة الاساسية ؟ أي المعنى والبيان الصوتي والخيال المرئي ؟ تلك هي حقيقة يرجع اليها القول المأثور ، (ان من البيان لسحرا) .
(راجع كتاب العبقرية العربية في لسانها للمؤلف) .

وفضلاً عن ذلك تجمع اللغة العربية مقومات الحياة الانسانية : الصبوة الى المثل الأعلى ، والنزعة الى ينبوع الحياة . وان الاختلاف بين الفصحى والعامية ، خلود الأولى وخضوع الثانية لأراجيف البيئة انما هو بيان الاختلاف بين المثل الأعلى والواقع . حتى ان الاختلاف في تراثنا بين الرحمة من الرحم والشيطان (من الشطط) يرجع الى ذلك الاختلاف الا تبدو الصيغ في اللغة العربية وجهات مثالية قد ادركها العقل فاستقر عليها ؟ او ليست الكلمة العربية من شقائقها الكلمات الأخرى من النفس على مثال النغم بين الأنغام في الانظومة الواحدة توجه الكلمات بانسجام معانيها المحسوس منها والمعقول ، الذهن ، على موجها نحو الحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق كما تحمل الأنغام على موجها نحو الالهام منبعثاً من أعماق الوجدان . ومتى تم بعثنا عدنا الى سابق عهدنا هداية للناس اجمعين .

نظرة في مزايا اللسان العربي

ظل اللسان العربي محتفظاً ، بفضل بنيانه الاشتقاقي ، بأصوله في الطبيعة ، وبمسالك نموه نحو اداة بيانية متكاملة ، فالكلمة لم تزل فيه على نشأتها الأولى ، صورة صوتية ، تحمل طابع المعنى الذي أنشأها ، وتدل عليه دلالة المبنى على المصمم ، وبنيان هذا اللسان لم يزل يؤلف كلا حيا ، تنسجم فيه المقومات ، كالنحو والكلام والحروف والحركات ، انسجام الأنسجة في البدن .

ولما كانت الحياة نفسها قد اشتركت مع الأفراد في إنشاء هذه الاداة من البيان ، فقد جاءت المفاهيم المنطوية في كلماته ، حدساً صادقاً في طبيعة الأشياء ، وهكذا تكمن المفاهيم ، أصول مؤسساتنا ، في كلماتنا ، كمون الحياة في بذور النبات _ وإذا كانت الطبيعة تستجلي نوع الحياة الكامنة في البذرة ، فكذلك الفرد يستجلي ، بخيـــاله ، تجربة

الحياة المتبلورة حدساً في الكلمة . مثل الكلمة العربية من معناها ، كمثل النغم من الهامه في الأنشودة ، يبعث النغم بنزعته التي يشترك فيها مع شقائقه الانغام الاخرى ، الالهام مصدر وجود الأنشودة ، وتحول الكلمة العربية الحدس ، مبدأ الاشتقاق ، من حالة ابهام الى وضوح تام إن انسجمت هي وشقائقها ووجهت المعاني المشتركة فيما بينها ، توجيهاً متقارباً في الوجدان ، وعندئذ تصبح في أسرتها بمثابة مصباح في ثريا ، يزداد وضوحها ويتلون معناها .

إن اللسان العربي ، إذا درس دراسة توليدية Genetique هدانا الى استجلاء آية الأمة التي أنشأته تعبيراً عن ذاتها ، فأودعت فيه تجاربها ورسمت بمنحنياته سماتها ، حتى أصبح منها كالجسد من النفس ، وهدانا أيضاً إلى إنشاء ثقافة إنسانية نامية أصولها في الطبيعة ورائدها الملأ الأعلى .

هذا فضل عن ان دراسة لساننا ، تكشف لنا عن نهج الحياة فى ايجادها أداة بيانها ، فتساعد على حل المشكلة التي استعصى على العقل حلها ، ألا وهي مشكلة اللسان ذاتها .

وهل تقف دراسة هذا اللسان البدىء والبدائي عند الفوائد المتقدم ذكرها ؟ انها سوف توضح العلاقة بين اللغات السامية

واللغات الهندسية ـ الأوربية ، على اعتبار أن اللسان العربي كلمات أنشئت نشأة طبيعية ، أنشئت من أصوات مصطفاة من بين بوادر الشعور الطبيعية .

حتى ان هذه الدراسة ، سوف تبين لنا حدود العلاقة بين المعنى والصورة ، وسوف تهدينا الى الأسباب التي تجعل الكلمة العربية صورة حية ، تفيض على المفاهيم الكامنة فيها بياناً صوتياً مرئياً ، يكسبها حلة من الشعر .

ولما كان اللسان العربي مؤلفاً من كلمات ذات بنية عضوية فقد كون انسجام مقوماته مصاعد يرتقي عليها الذهن نحو المفاهيم في مصادرها ، وقد أصبح متكلموه متصفين بطابع رحماني ، يمتازون به عن سواهم من الأقوام بالميـــل إلى الأخلاق والفن .

* * *

نشأة اللسان العربي

كيف ظلت مزايا اللسان العربي مجهولة حتى اليوم ، أيرجع السبب في ذلك الى الاختلاف بالعبقرية ، بيننا وبين الذين أولوا عنايتهم دراسة لساننا ؟ أم يرجع السبب الى ان اعلام اللغة وجلهم من الأعاجم ، قد أدركوا بنيان كلامنا من خلال عقليتهم ، فدونوا قواعده على مثال قواعد لغتهم ؟..

ومهما يكن السبب في ذلك ، فان دراسة لساننا يظهر فيها التقصير ، ولا سيا في تنظيم — معاجمنا ، حيث ظلت الرابطة الاشتقاقية على حدود العلاقة بين الفعل ومشتقاته الاسمية والفعلية ، بينما هذه العلاقة تشمل جميع الأفعال التي ترجع الى صورة صوتية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة . فعلاقة فعل « خرق » مثلا تقتصر في المعجم على الكلمات التالية : الخارق (ما يخرق العادة ، والمخراق ، والمخرقة :

« المثقبة » والخارق : « المنافذ » في حين أن العلاقة المذكورة تشمل الأفعال التي ترجع الى أرومة (خرير الماء) الصورة الصوتية المرئية الأولى ، أي انها تشمل الأفعال التي تشترك في خيال تأثير الماء في مجراه ، خرب خربا ، خرج خروجاً ، خرد خرداً ، حزم حزماً ، خرز خرزاً .

وهناك مثالاً آخر نزيد به من وضوح وجهة النظر المتقدمة ، فق" الماء ففقق ، وهو الصوت المقتبس من غليان الماء . إن هذا الصوت قد كان مبدأ اشتقاق الأفعال التالية : فقأ الدملة ، فقح الكلب عينيه ، فقص النقف من البيضة ، فقه العالم الحقيقة ، فقر ، فقع . هذه الأفعال هي ومشتقاتها الفعلية والاسمية تنطوي على خيال الفقاقيع المتفتحة عن داخلها .

وهنالك أمثلة من نوع أخر ، غير أن الأصوات في هذه المرة مقتبسة من عبارة الهيجان الطبيعية ، كصوت « ءن » و « آخ » ، مثلاً فقد صنع الذهن العربي من صوت « ءن » فعل « أن » انينا ، ومنه أيضاً قد صنع ضمائر المتكلم والمخاطب نحو : انا ، أنت ، انتما ، انتم ، انتن . وربما كانت عبارة الهيجان منشأ اللسان واصول البيان فيه .

وقد استفاد الذهن العربي من الأصوات والحركات التي

تحصل معاً في الضم أيضا نحو : بتّ ، وقصّ ، وقدّ ، وقضّ . . فعبر بها وبمشتقاتها عن تلونات الحدس الحاصل عند حدوث الحركة ونحن على سبيل المثال ، نسوق هنا بعض اسر الكلمات العربية مظهرين بها فسحة الخيال العربي ودقة ملاحظته .

١ — قطّ ، القط ، القطب ، القطوب ، قطر ، القاطرة ، القنطرة ، قطع ، المقطع ، قطف ، القطيفة ، المقطف ، قطل ، قطم ، المقطم ، القطمر ، قطن ، قطاء القطاة .

٢ — قد ، القد ، القديد ، القدح ، القدر ، القادوس ، القداف ، القدم ، القدوم ، القدموس .

٣ — بت ، البات ، الباتر ، الأبتر ، الأبتع ، الباتك ، البتول ، البتار ، تبتل ، بطر ، الابطر . .

ولنأخذ احدى كلمات القاموس ، كيفما اتفق ، ولتكن هذه الكلمة (خجل) . نجد الكلمات التي تجتمع في هذه الاسرة هي : الخجل ، الحياء ، خجل البعير بالحمل ، ثقل عليه ، خجله وأخجله : جعله يخجل : ونحن اذا ما تتبعنا الكلمات التي تشترك في صوت : خجّ ، الذي هو مصدر الاشتقاق ، نجد هذه الكلمات تنطوي على خيال النشأة :

خج . خج ، خج الجمل برجله : شف بها التراب بمعنى مشى مشية غير لائقة ، ومنها خج ، الجمل أسرع مع التواء وخجأ الليل : مال ، تجاجأ : تباطأ ، الخُجأة : الاحمق Gaucherie . خجى التراب برجله نسفه .

ولنأخذ كلمة اخرى من القاموس ولتكن هذه المرة كلمة « عشق » تقف العلاقه الاشتقاقية عند حدود الافعال والأسماء المشتقة من فعل « عشق » ومنها العشق : افراط في الحب ، العشقة : نبات يلتوي على الشجرة ويلزمها ، العشيق ، العشاق . . الخ . ونحن نجد لدى التأمل ، خيالاً مشتركاً بين الكلمات أمثال عش الطائر لزم عشه ، عش الكلأ يبس العش : موضع الطائر ، ومنها عشب ، يبس ، العشب : الكلاء ، العشاب النباتي ، ومنها عاشره ، خالطه وصاحبه ، والعشرة والعشراء ، والمعشر ، ومنها عشم الشيء : يبس والعشمة الخبزة اليابسة ، والأعشم ، الشجر اليابس . والأصل هو صوت « رش » الصوت الذي يحدثه الطائر عند دخوله بين الأوراق اليابسة . .

وعلى هذا ، فالكلمة العربية ليست اذن ، رمزاً يلتصق به المعنى عرضاً واتفاقاً ، كما هي الحالة في تعريف الكلمة

في اللغات الاوربية ، بل انهـا صورة تتألف من صوت وخيال مرني ومعنى هو قوام تآلفها . ويؤخذ مما تقدم ان العبقرية العربية قد استندت ، في انشاء اداة بيانها الى المداد Rythme المنطوي في الصور الذهنية والى تعـديل مظاهر الحياة المختلفة بالصوت الذي هو طوع ارادتهـا ، وبالرؤية التي هي ذات تلون ودقة وهل يختلف منهـج العبقرية العربية هذا عن نهج الحياة ، اذ هي تعدل حركة الفم العضلية بالصوت ، والصوت بالرؤية ، منتقلة بهذا التعديل الى مداد آخذ بالدقة ، مداد نقتصد به الجهد اللازم لانشاء درجات صعودها نحو انسانية متكاملة .

ان اللسان العربي ، بمبدئه « المعنى » وتجلياته «الأصوات» على غرار البدن ، شجرة سحرية نامية أبداً ، جذورها في الملاء الأعلى وتجلياتها في الطبيعة .

* * *

نمو اللسان العربي

يتم نمو اللسان العربي بتأثير متبادل بين الفكرة وعبارتها ، هذه تستجلي معناها وتثبته فتصبح منه بمثابة الجسد من النفس ، وتلك توحي باصطفاء الكلمة من بين العبـــارات الممكنة . مثـــل المعنى من صورته البيانية التي هي الكلمة من اللسان العربي كمثل الالهام من التحفة الفنية .

وأما المصادر الصوتية ، التي منها صاغ الذهن العربي كلماته فهي (١) أصوات الهيجان الطبيعية (٢) الأصوات التي تحصل في الفم (٣) الأصوات المحدثة في الطبيعة .

١ ـــ بدأ الذهن العربي يصوغ الكلمات من عبارات الهيجان الصوتية ، فمن عبارة « آخ » مثلاً ، صاغ « الأخ » والأخوة ، والأخاء . ومن صوت (تف ، تف) صاغ التفة ، المرأة الحقيرة ، وتفل ، والمتفلة ، وتفه الشيء : قلّ وخسّ ، والتفاهة . ومن عبارة (نف) صاغ نف السويق ، سفة ، نفثت الحية السم ، النافث : الساحر ، نفحت الريح ،

هاجت وجاءت بشدة . نفح الطيب : انتشرت رائحته ، نفخ ، نفد الشيء : فنى ، نفذ خرق . نفر ، النفس النافلة . نفهت نفسه . كلت واعيت . ومن صوت (ن) صاغ الضمائر : أنا ، أنت ، أنتما أنتم وصاغ منها أيضاً : الأنين ، والحنين ، هي ومشتقاتها الاسمية والفعلية . وربما كانت عبارة الهيجان التي هي الأصل في ايجاد اللغة ، لأن الانسان يشترك مع الأحياء العالية في اللغة الطبيعية .

وقد صاغ الذهن العربي من الأصوات التي تحصل في الفم مجموعة عظيمة من الكلمات ، فمن صوت (بتّ) الذي يحصل من تقاطع اللسان مع النطع ، والذي يوحي ، بحسب طريقة حدوثه معنى القطع الكلمات التالية : بت ، البات ، الباتر ، الأبتر ، الابتع ، الباتك ، البتول ... الخ . ومن صوت قط : القِط ، القطب ، القطوب قطر ، القاطرة ، قطع ، المقطع ، قطف ، المقطف ، قطل قطم ، قطا ، القطاة . ومن صوت قد : القد القديد ، القدح ، القدر ، القادوس ، القدم ، القدوم ، القدموس ، الخ . ومن قص القصاص ، المقص ، القصة ، قصبه ،

قطعة ، قصد ، القصد ، القصر ، المقصورة ، قص الشيء : قطعه ، قصم الشيء : كسرة . . الخ .

وقد صاغ الذهن العربي من الأصوات التي تحدث في الطبيعة الكلمات الآتية :

فمن صوت (تر الماء ترتر) أي من صوت سقوط الماء متقطعاً صاغ الكلمات : تر العظم ، انقطع وسقط ، والترى من الأيدي : المقطوعة ، والمتراح من النـــوق التي يسرع انقطاع لبنها .

ومن صوت خرير الماء صاغ الذهن العربي : خرب ، خرج ، خرد ، خرم ، خرق . . الخ .

كلمات توحي بتأثير الماء في مجراه : خربا ، خروجا ، خردا ، خرما ، خرقا . . الخ .

ومن صوت فق الماء فقفق وهو الصوت الذي يحصل من غليان الماء ، صاغ الذهن العربي الكلمات : فقـــأ الدملة وفقح الكلب عينيه ، فقص النقيفُ من البيضة ، فقد ، فقه ، ... الخ .

ولدى التأمل في الأمثلة المتقدمة يبدو أن الذهن العربي قد سلك طريقين في صوغ الكلمات من الأصوات : الالحاق والتحويل . فقد صاغ هذا الذهن من صوت (زم)

الذي هو الصوت الزنبور والمتضمن معنى الشدة الكلمات : زم ، الزمام ، زمت ، زمح ، زمخر ، زمن ، الزمن ، زمزم ، الازمع أزماك ، الزمانة ، الخ . . وكان ذلك بالحاق حرف ملائم لطبيعة المعنى المقصود إلى صوت (زم) .

وقد اشتق الذهن المذكور بتحويل الحرف الأول الى شقيقه بالمخرج (ض) الكلمات : ضم ، ضمر ، ضمد الجرح ، شده بالضماد ، ضمد : اشتد غضبه . الضمادة . ضمر . على ماله : شح . ضمضم الأسد : زأر . ضمن الرجل : أصابه مرض يلازمه ويشتد عليه وقتاً بعد وقت فهو ضمن .

وهاك أمثلة أخرى نهج الذهن العربي في صوغها الالحاق والتحويل : فمن صوت (ن) : أن ، الاناء ، أنس ، الانسان ، الأنام ، الأناة . ومن أن أيضاً : حنّ وحرف هاء ، شقيق الهمزة في المخرج : الحنين والحنان ، وحنث ، وحنش ، وحنط ، وحنف ، وحنك ، وهنا ، ومن صوت (عن) والحرف (ع) شقيق الهمزة بالمخرج صاغ العنين ، العنان ، عنت ، العنوت ، عينت الجارية ، عنف ، عناله ، عاني ، معاناة . . الخ .

ومن صوت (بت) وبالحاق أحد الحروف اشتق : البات ، الباتر ، ومنها أيضاً وبتحويل حـــرف تاء إلى شقيقه بالمخرج « دال » اشتق : بدّد ، البدء ، المبدأ ، البدئي ، بدر ، البادرة ، بدع ، البدعة ، البديع ، بدن ، بده ، بداهة ، ومن تحويـل حـــرف « تاء » إلى شقيقه بالمخرج « ط » بطر ، البطر ، بطر ، البطل . . الخ . ومن تحويل حرف « دال » إلى شقيقه بالمخرج « ض » اشتق الكلمات : بض ، بضع ، البيضة ، البياض .

ومن تحويل حرف « تاء » في تر الماء إلى شقيق التاء بالمخرج « دال » اشتق : در الحليب ، ومن تحويـــل « دال » إلى ذال ، اشتق : ذرّ الذرة . ومن تحويل حرف « دال » إلى شقيقه بالمخرج ، « ض » اشتق ، ضرّ ، تعبيراً عن معنى مضاد لـ« ترّ » ، ضـــر ضرع البقر : جف وانقطع عن الدر . . .

أليس من غريب الأمر أن يفطن اللغويون لمبدأ (الالحاق) في استخراج الافعال تبعاً لقواعد معينة وان يقصروا عن ادراك شمول هذا المبدأ ؟ كلنا نمارس الاشتقاق فنشتق مثلاً أكرم من كرم ، واستخرج من خرج ، وانقطع من قطع ،

وكسّر من كسر . . الخ . ولو أمعن النظر في بنية اللسان لظهر تكوينه من أصوات طبيعية وفق قواعد الاقتران والمشابهة والتضاد في تأثير صورة ذهنية على دعوة صورة ذهنية أخرى وهنا نورد بعض الأمثلة التي تدل على تأثير قواعد التداعي المذكورة في تكوين لساننا .

صوت « أجّ » هو صوت ذكر الحمام حين يحوم حول انثاه . والأجيج هو اختـلاط الكلام . ونجد في اسرة كلمات « أجّ » بمعنى اضطرم وتلهبّ ، وأجّ الماء : صار أجاجا : ملحـاً مُرّاً وكيف كان ذلك التناقض ؟ أفي نفس الأسرة لهيب النار والماء المالح ؟ والسبب في ذلك هو أن ذكر الحمام يحمي وينفش ريشه حين يحوم حول الأنثى . فمن شكل الريش انتقل الذهن بالمشابهة إلى البحر ، ومن البحر ، بالاقتران الى ماء البحر المالح . وهنا يلتقي الذوق العربي مع بعض الشعراء الذين يرددون الشبه بين الطاووس والبحر ومن حرارة الحمام انتقل الذهن إلى لهيب النار . وكلمة حمـام ، نفسها مشتقة من الحماوة . وصوت « قرقر » هو صوت دويبة مستطيلة تعيش في موسم الشتاء في الأنهار اسمها (قِرقُريُرْ) . لدى التأمل في

الكلمات المشتقة مباشرة من هذا الصوت نجد أولاً الكلمات في اتجاه الصوت نفسه : قرت الحية : صوتت . القرة : الضفدع . قر الكلام في أذنيه : وضع فـاه على أذنه فأسمعه . اقر بالحق أذعن واعترف به . وقرأ . . الخ . وفي اتجاه موسم الشتاء : قر اليوم : برد . القر : البرق . القرور : الماء البارد . يوم قار : يوم بارد . وفي اتجاه قاع النهر : قر في المكان : ثبت . القرار والاستقرار الخ . .

وأما مبدأ التضاد فهو مألوف في اللسان العربي : وعلى سبيل المثال نورد بعض الكلمات : ضر ضرع البقرة مضاد « درّ » ضرع البقرة . وعدم مضاد لـ « عد » أي حسب له حسابا ، أو قدر له قيمة وخرود المشتقة من « خرد » تفيد المعنى المضاد لمصدر الاشتقاق . . الخ .

هناك نمط آخر في إبداع الكلمات العربية إلا وهو النحت . وفي النحت تبرز العبقرية المبدعة للفنان الشاعر . واليك بعضاً من الأمثلة . تفاح : منحوتة من « تف » و « فاح » فتوحي بالفاكهة التي تجعل اللعاب ذا رائحة ذكية . وعصفور : منحوتة من « عصف » و « فر » . وسلحفاة : من « سل » و « لحف » توحي بزاحفة تسل وهي ملتحفة

بقوقعتها . وضفدع : منحوتة من « ضفة » النهر ، ومن « دعا » توحي باحياء تجتمع حول أطراف الانهار فيدعو بعضها بعضا . وقشعم : من « قش » و « عم » وزمهرير : من « زم » و « هر » وزمجر من زم وزجر (أكثر الصياح) . وقنفد من « قن و « نفد » توحي بالشوك . برغش : من « بر » و « غش » توحي بحشرات تعيش في البرية فتغشى على الأشياء . برعم : من « بر » و « عم » ما يعم البرية . غرنيق : « غر » و « أنيق » عبقري : عبق وقر . على مثال الزهرة التي تنشر العطر بصورة دائما . الزبرج : زبر « برج » . كتابة بارزة .

ومع خضوع الذهن لقواعد الاقتران والمشابهة والتضاد في صوغ الكلمات من أصوات طبيعية يبقى الحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق ملقياً طابعه على الكلمات المشتقة من هذا المصدر . حتى إذا ما تم استقطاب تجليات الحدس المذكورة في الكلمات في وحدة إدراك ارتقى الذهن إلى بصيرة في صميم الحياة .

* * *

البيان الصوتي في اللسان العربي

إن البيان لا تخلو منه لغة من اللغات ؛ إلا أنه يبقى على حدود العبارة في اللغات الحديثة بينما هو يشمل العبارة والكلمة والحرف والحركات في اللســان العربي . ففي اللغة الفرنسية مثلا يقتصر البيان على الاسلوب أي أن العبـارة في تطورها توحي بالفكرة كما أن الفكرة في تموجها تؤديها العبارة في حركتها . ولكن اللسان العربي يفيض بالحياة في جملته وفي أجزائه ، فإنه على مثال الاحياء نفسها .

يتساءل المرء إلى م يرجع الاختلاف في البيان بين اللسان العربي وبين اللغات الأخرى ؟ إلى بدائية لساننا ، إلى جذور كلامنا في الأصوات الطبيعية ، إلى أصالة العلاقة بين الكلمة ومضمونها وبتعبير آخر إلى العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية والمعنى . لقد بينا في حديث سابق أن للكلمات العربية ثلاثة مصادر أساسية أولها الأصوات التي

تعبر عن المشاعر عبارة طبيعية وثانيها أن الأصوات التي تحصل في الفم صداها في النفس ، هو معناها ، وثالثها الأصوات المقتبسة عن الطبيعة الخارجية .

فأما الأصوات المعبرة عن الهيجان فتقوم على علاقة فطرية بين الشعور واللفظة كبادرة من بين بوادر الهيجان الأخرى وحكمة وجود هذه العلاقة بين الصوت والمعنى هي المشاركة الوجدانية بين أعضاء مجتمع تربط بينهم الرابطة الرحمانية ، ولفظة « آخ » التي هي للتوجع تدعو الأقارب لترديد الصوت قائلين : « آخ » ومن هنا كان اشتقاق الكلمات : اخ ، واخاء ، وأخوة . وصوت آخ ، كعبارة للهيجان يشبه صوت الدجاجة « قيرْق ، قيرْق » الصوت الذي تدعو به الدجاجة فراخها . والفراخ يميزون في الصوت بين إنذار بوجود باشق في الأفق ، وبين حبات من الحنطة يلتقطونها عن الأرض .

وأما الأصوات المستحدثة في الفم كصوت : بت ، وقض ، ، وقط ، فصدى حدوثها في النفس هو معناها . وهنــا أيضاً العلاقة بين الصوت والمعنى علاقة طبيعية . وجميع الحروف والحركات في اللسان العربي ترجع إلى العلاقة

بين الصوت وبين طريقة حدوثه في الفم . هذا فضلاً عن مصادر صوتية لا تحصى ترجع إلى نفس العلاقة كما بينا ذلك .

وأما الأصوات المحدثة في الطبيعة الخارجية ، فإن صوغها في كلمات ذات معنى يحمل طابعاً إنسانياً ، مما يكسبها هي أيضاً قدرة إيحائية . فمن المعلوم أن البنيان الاشتقاقي أصل في اللسان العربي وعندما نشتق من خرج مثلاً استخرج باضافة حرفي « س » و « تا » نكون قد حملنـا عبارة إنسانية لاصوت الطبيعي الذي هو هنا صوت خرير الماء .

وها نحن نقدم هنا أمثلة عن البيان في الحروف والحركات ، الكلمات والقواعد :

البيان في الحركات والحروف

في الكلمة العربية ، تحتفظ الحركة بمدادها الأصيل ، فتعبر بذلك عن معناها البدىء ، فالفتحة الحاصلة بحسب مخرجها عن ركون اللسان عند صدور الصوت تعبر عن الركون والاندراج ، والكسرة الحاصلة عن صدور الصوت بكسر الشفتين ورجعتها ، تعبر أيضاً عن النسبة أو عودة

الحالة إلى الذات وكذلك الضمة الحاصلة من تدافع الصوت عند خروجه ، تعبر عن الفعالية المتواصلة والدائمة .

ففي الاعراب ، أو وظيفة الكلمة في الجملة ، مثلا ، يبدو بيان الحركات بصورة مضطردة ، فالفعل المضارع ذو الفعالية المتواصلة (حاضر ينزع إلى المستقبل) يعرب مبدئياً بالضمة وهي عبارته الطبيعية ، وكذلك الفاعل يعرب أيضاً بالضمة ، بينما نرى المفعول ، لكي يحتمل فعل الفاعل ، يعرب بالفتح ، وكذلك الفعل الماضي يدخل في الركون باعراض الوجدان عنه ، فيبنى على الفتح بياناً لذلك .

أما الأمر والنهي ، فانهما ، بحسب طبيعة مفهومهما ، يجزمان ، ويعبر عن التوكيد بالشدة ، ليكون هناك تلازم بين العبارة والمعنى المقصود بيانه ، ويعبر عن المجرور أيضاً بالكسر تحقيقاً للنسبة . وتحتفظ الحركة ببيانها في بيان الكلمة أيضاً ، ان لم تعترها ضرورة صوتيه ، فصيغ الفعل الثلاثي ، كما أوضحنا ذلك في مبحث « المشتقات الفعلية » في كتابنا (العبقرية العربية في لسانها) ، حاصلة بالنسبة إلى حركة الحرف الثاني منه ، كذلك نجد هذه القاعدة على الأغلب ، في أسماء المصادر والأسماء .

ولما كانت حروف العلة ، بحسب شكلها وكيفية تكوينها تفخيماً للحركات المقابلة لها أي أن الواو تفخيم للضمة والياء تفخيم للكسرة والألف تفخيم للفتحة ، فهي تعبر عن المعنى بصورة مفخمة : فهم فهيم ، نبه نبيه .

ويتمتع الحرف العربي أيضاً بقيمة بيانية ، وإن تحددت هذه القيمة بمنظومة الكلمة الصوتية إلا أن بعض الحروف يقوم في هذه المنظومة بمثابة نبرة الايقاع في تعيين بيان معنى الكلمة ، ويفي الحرف الأول من الكلمة على الأغلب بهذه الوظيفة . ان حرف « غ » هو أبلغ بياناً من كافة الحروف الأخرى ، فبحسب مخرجه وما يلقى من صدى في النفس عند خروجه ، يعبر عن معنى هو الغيبوبة والغموض ومن هذه الكلمات « غب هو الغامض من الأرض . و « غبر مضى ، وغبش الليل : أظلم ، وغبط النبات : تدانى وغطى الأرض ، غبن وغباشة ، وغبى الغبوة ، الغفلة ، وغرب النجم ، وهكذا غرر وغرس وغرق وغطى وغاص وغمد وغمر .. الخ » .

البيان في القواعد

بالجمع تبرز خصائص المفرد ، فيجمع المذكر السالم

تحويل التنوين إلى (واو ونون) بالرفع وإلى (ياء ونون) بالجر : مؤمن ، مؤمنون ، مؤمنين . وفي المؤنث السالم تتحول التاء المربوطة إلى تاء طويلة ، ويتبع هـذا التبدل تعديل بحركة الفتحة المناسبة للحركة المتقدمـــة على التاء (الف) فتصير : مؤمنة مؤمنات .

وفي صيغة المجهول تنتقل حركة الفاعل إلى الحـــرف الأول من الفعل ، بياناً لتحمله فعل الفاعل ويكسر الحرف الثاني ، علامة للنسبة في الماضي ، وأما في المضارع فتفتح هذه الحركة ، دلالة على عدم استكمال فعل الفاعل .

وفي التصغير يضم أيضاً الحرف الأول ، بياناً للفاعلية ، ويلزم الحرف الثاني الفتح مع إضافة (ياء) فيولد في الذهن خيال القسر والتقاعس عما بدا : نهر ، نُهيْر ، رجل ، رُجَيْل ، كلب ، كليب ، الخ ...

وأما في النسبة فان الياء الملحقة بالاسم هي علامتهـــا الطبيعية ، دمشق ، دمشقي ، عقل ، عقلي ، وإذا كانت الياء في صلب الكلمة تفيد استقرار الصفة : نجيب ، نبيل ، سليم الخ ...

هكذا يصطفي المعنى الصورة المحققة له من بين البوادر البدائية التي هي أكثر صلاحاً لوجهة نظر الإنسان في الوجود فيتخذ الأصوات المرافقة لهذه البوادر والمنطوية على مداد مشترك معها ، فيصنع منها الكلمات ، وهذه تصبح بدناً له ، ولما كانت الحياة تنمو بتجاوب بين المعنى وتجلياته ، بين الملأ الأعلى والطبيعة ، فالصورة التي تتجلى بها هذه الطبيعة للانسان هي على الخصوص مرئية ، مما أدى إلى تفرغ الصور الصوتية ونموها بتداعيها مع الصور المرئية ، فالكلمة تحتفظ ببيانها بنسبة ماتشترك هـذه الصور الصوتية المرئية بالمداد الأصيل ، مداد البوادر التي — اختارتها الحياة بدنا لها — (من كتابنا العبقرية العربية في لسانها) .

☆ ☆ ☆

البيان المرئي

جرت العادة على توزيع الكلمات في المعجم على اسر ، فمثلا الكلمات : عقل عقلا البعير : اعوجت قوائمه فهو اعقل ، عاقله : غالبه في العقل ، فعليه ، تعقل الغلام ، تكلف العقل ، اعتقل الرمح ، وضعه بين ركابه وساقه . اعتقل لسانه : حُبس عن الكلام . العقل . العقلي . العُقْلة القيد ، العقال : العاقل . العقيلة من النساء . الكريمة .

المعقل : الملجأ . المعقول . تجمع الكلمات المتقدم ذكرها تحت فعل : عقل . والكلمات التالية تجمع تحت فعل شرع : اشترع الشريعة : سنها . الشرع : ما شرع الله لعباده . الشرع : المثل . الشريعة : الطريقة الى الشريعة ، السنة . الشارع : الطريق النافذ . الشراع . الشرعي . خيل للباحثين في هذا المجال أن الرابطة بين كل من الكلمات ومعناها في اللسان العربي على مثال العلاقة بين

الكلمة ومعناها في اللغات الأخرى ، فليست الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات في الاسرة الواحدة إلارابطة عرضية تمت نتيجة ظروف طارئة . ومادام العرف يحـدد العلاقة بين الكلمة ومعناهـا فكيف لا يهمل الحدس الذي هو المعنى المشترك للاسرة الكلمات المشتقة من ذات الفعل كاشتقاق الكلمات السابق ذكرها من فعلي : عقل وشرع . فمن هنـا كانت المحاولة في حرية التصرف في صوغ الكلمـات العربية على غرار صوغ الكلمات الأجنبية . ومن هنا أيضاً كان تمرد الذوق العربي على الطريقة المستعارة عن لغات غـيرنا من الأقوام في صوغ كلامنا . لقد فات الأعاجم ومن اتبعهم من المغفلين من العرب ان اللسان العربي ذو بنية خاصة ، تشترك ثلاث عناصر في تحديد معاني كلماته هي : الصوت والخيال المرئي والحدس الذي يؤلف بين الصوت والخيال المرئي . ففي تحديد معنى كلمة « ذكاء » مثلا يتضافر الصوت « ذك » وخيال اللمعة التي تحصل من الاحتكاك والدلك ، وحدس الضوء والاشراق في الطبيعة والنفس . ومنها : ذكت النار : اشتد لهيبها . ذكى النار : أوقدها . الذكاء ، حدة الفؤاد ، ذكاء اسم علم للشمس .

واليك بعضاً من الأمثلة نوضح بها وجهة النظر المتقدمة . فكلمة « أرملة » تبعث بخيـــال الرمل الذي كانت المرأة تطلي به وجهها عندما كانت تشيع جثمان زوجها الى القبر . وكلمة « كنة » تبعث بخيال الكن أي الوشاح الذي تتشح به العروس وهي في طريقهـــا الى خلوة العرس . وكلمة « صهر » توحي بخيال الانصهار في بوتقة الأسرة . وكلمة « حمو » توحي بخيال الحماية . وكلمة « جد » توحي بخيال الجهود التي انفقها في تشييد صرح الأسرة . وكلمة « عم » تعيد الى الذهن العادة القديمة عند العرب التي كان بموجبها يتوج أي يعمم من العمامة في كل من أبناء العشيرة وقت بلوغه سن الشباب فيصبح عما لأبناء العشيرة . وكلمة « خال » توحي بخيال تخلي المرأة عن علاقتها باهلها والتصاقها باسرة زوجها ، هي وأولادها . وكلمة « ابن » توحي بخيال البناء .

وهاك مجموعة أخرى من الكلمات كأمثلة عن اشتراك الخيال المرئي في تعيين معنى الكلمة العربية فكلمة « ذَنْب » وصورتها الحسية « ذَنَب » توحي بأن الاثم يلاحق مقترفه وهو منه بمثابة الذنب من الحيوان . وكلمة « ثواب » وصورتها الحسية الثوب ، توحي بان العمل يلبس صاحبه

أي يشترك في تكوين شخصيته ، فإذا كان نبيلا تجمل به صاحبه وإلا خس وتدنى . وكلمتا « جزاء و قصاص » تتضمنان معنى القطع فتفيدان معنى التطاول والاعتداء وإعادة الحالة إلى ما كانت عليه من قبل . وكلمة « جريمـــة » تتضمن خيال الجر . جر المجرم آثامه . وكلمة « عدالة » وصورتها الحسية عدلى الفرس توحي بخيال النظام . ومن هنا كان شعار العدالة الميزان .

هكذا يتحدد معنى الكلمة بمنظومة معـاني شقائقها في الأسرة وهكذا يبعث خيال نشأة الكلمة عندما تنتظم بين شقائقهـا الصورة الحسية والمدلولات المجردة . مثل الكلمة العربية بذلك كمثل النغم في الأنشودة .

تلك هي الكلمة العربية ذات فردية خاصة تتميز بهـا عن سواها وهي بذلك على مثال الأحياء نفسها . لقد التبست هذه الحقيقة على الكثيرين من الدخلاء على اللسـان العربي وخاصة على الأجـانب منهم ، كما تلتبس على عشيرة نودية الكئوس المختصة بأنواع المشروبات المختلفة في قصر خـان الدهر أهله فاحتلته هذه العشيرة ، وكما يبدو للعامي الاختلاف في وظائف المقصات المستعملة في الجراحة طامساً .

ولئن كانت المدنية الحديثة تجيب على تنوع الاعمال باختراع الآلات المختصة لاداء عملها ، فكذلك الذهن العربي تحقيقاً لنزعته إلى الابداع وتحرراً من العطالة المستحكمة بالاسم المألوف ، يحدد صفات المسمى بمشتقات هي أشبه بصور شعرية ، عمت عنها بصائر الدخلاء فتلقوها مترادفات.

وهاك بعض الأمثلة ايضاحاً لما تقدم :

١ — الأسد : من ساد سيادة ، فمن سد ، بمعنى أغلق حماه على الغير ، ومنها السيد وهو الذي يحمي العشيرة ومنها الأسود الذي يقصر عن حماية حقيقته فيصطبغ بلون الحقد والحقارة . والليث ، من القوة والشدة . الزابر : من أزبر الرجل : عظم جسمه ، أزبر الكلب نفش وتهيأ للشر ، الازبر : العظيم الهيكل . غضنفر من غضن ونفر ، فيفيد الأول الثنى والتشنج ويفيد الثاني النفور ، والهزبر : الشديد الصلب . والهيثم : من هثم : دق وسحق . والاصبح : بالنسبة إلى طلعته الوضيء الوجه . ورد بالنسبة إلى لونه . ضرغام من أضر وأرغم : وهي من الشجاعة والقوة . السبع : هو المفترس من الحيوان .

٢ ـ الفرس : فرس : من فر بمعنى طـار أي : سريع العدو . حصان من حصن ، فكان صاحبه يتحصن به من الأعداء ـ جواد : كريم بمعنى أنه يقدم على الخطر ويبذل نفسه في الاقدام . المزكى : النجيب من الخيل . السابح : بالنسبة إلى شكل حركته ، السريع في الركض ضامر : بالنسبة إلى تبيان جسمه . أجرد : بالنسبة إلى شعره . اقب : بالنسبـة إلى قوامه الاقب : المرتفع ، كميت بالنسبة إلى لونه .

٣ ـ قسام : من قسم . فيصل : من فصل . قاطع من قطع . ماض . سريع القطع . صقيل : من صقل . باتر وبتار من بتر بمعنى قطع بشدة . ابيض : بالنسبة إلى لونه . ذكر : بالنسبة إلى صلابته وفعله .

إن الكلمات لم تطمس صورها الشعرية على الأعاجم ، فبدت مترادفات ، بانقطاع صلتها بالطبيعة فحسب ، بل ان العادة أيضاً قد أفقدتها رونقهـا فباتت باهتة في نظر أبناء الأمة أنفسهم .

☆ ☆ ☆

المنظومة الصوتية

نتناول بالبحث في هذا الفصل قوام اللسان العربي من حيث هو لسان أي من جهة تفنن أصواته ودقتها أولاً ، وانسجام منظومة تراكيبها ثانياً .

١ ـ فلما كان الهواء يخرج من الحنجرة متموجاً فإن كل موجة تحدث بوقفتها حرفاً بنائياً ، وبانتقالها بين وقفتين ، حرفاً صوتياً ، ومن تركيبها لحناً (مقطعا) . وما الكلمة إلا منظومة الحان يحيب بها الذهن في وحدة من الزمن على الهام فكرتها . ويختلف مداد الكلمة عن الحركة بتفرعه متزنا كتموج الحياة في نمو الكائن .

٢ ـ إن توزيع الحروف العربية على مجموعات ، بحسب مخرج حدوثها لمن الأمور المؤلفة ونحن نعيد ذلك هنا حسبما ورد في كتب اللغة :

الحروف الشفوية : و ، م ، ف ، ب ، والحروف اللثوية : ظ ؛ ذ ، ث ، والحروف الاسلية : ص ، س ، ز ، والحروف

الذلقية : ن ، ل ، ر ، والحروف النجرية : ض ، ش ، ج ، والحروف القطعية : ط ، د ، ت ، والحروف اللهوية : ك ، ق ، والحروف الحلقية : ه ، ع ، غ ، ح ، خ ، أ ، والحروف اللينة : ي ، و ، ا ، كل هذا يكشف عن الدقة في تكونها ، وتطورها بالتدريج بالاضافة على غنى نشأتها .

وتبدو الدقة والتلون على الخصوص في حروف اللين ، إذ انها تتموج بين كافة الانغام من انثائية إلى صوتية مفخمة ، فإلى حركات مخففة ، حتى انها تكاد تنتهي في الشدة والجزم بالسكون ، وذلك بياناً لتجليات المعنى المختلفة .

نوضح وجهة النظر المتقدمة بما يلي :

صوت ، تر ، ترتر ، الذي هو صوت سقوط الماء مقتطعاً تحول إلى « ثر » تعبيراً عن معنى الكثرة ، ثرت السحابة (غزر ماؤها) . شاة ثرة أي واسعة الأصليل غزيرة اللبن . وصوت « ثر ، تحول في اتجاه آخر إلى « در » در الحليب ، ناقة درارة ، الدُرة . وصوت « تر » المتقدم الذكر أدى في اتجاه آخر إلى « ضر » تعبيراً عن معنى مضاد لمعنى در ، ضر ضرع البقر : جف وانقطع عن الدر .

وصوت « ن » أدى إلى صوغ : ان انيننا ، وعن عنيننا ، وحن حنيننا . وصوت بت ، تحول فيه حرف « تاء » إلى أخرى هي منه شقائق بالمخرج ، بط ، بد ، بض .

كذلك هو المعنى فنان ، قيثارته الفم ، فهو وأن استعان بالصور ، المقتبسة عن الطبيعة الخارجية أو الطبيعة الانسانية فاقتبس عن الأول تقليد أصواتها ، وعن الثانية بيان مشاعرها الصوتي فانه لم يقف عن الاكتفاء بما تعرضه الطبيعة عليه ، بل أخذ يختبر قابلياته ويتفنن بالكشف عن دقائق تلونها ، ثم يصطفي من هذه التجارب البديئة ، المنظومات الصوتية التي هي أقبل بياناً عن تجلياته ، الآخذة بالتسامي ، وهو يستعين بالآخرين ذوي البنيان الرحماني المشترك على تقدير صدق ابداعه ، استعانة الفنان بوقع الحانه في نفسه .

ونحن نعيد هنا ما قد سبق لنا أن قلناه عن الاختلاف في البيان بين لساننا ذي الطابع الفني وبين غيره من اللغات :

« يمشي الانسان على رجليه ، وتدب البهائم على قوائمها وتزحف الديدان على بطنها ، وكذلك هي الاقوام ، اختار بعضها اسلوب الزحف في البيان ، وآخر اسلوب القفز ، وأما العرب فقد كان الانسان لهم قدوة في البيان .

إن اللسان العربي مجموعة من الركائز الصوتية ، يستند اليهـا الذهن في سيره نحو الحقيقة وهو في ذلك لا يختلف عن غيره من اللغات ، إلا أنه يمتاز عن سواه بايجاز كلامه وبتلون حروفه وبدقة حركاته .

٢ ــ يلخص الهيجان الحياة التي هو منها ظاهرة . يتألف الهيجان من شعور وبوادر Expressions كما تتألف الحياة ذاتهـا من روح وجسد والبوادر في انكشـاف المشاعر وتجسيدها بمثابة الجسد في نموه من استجلاء كوامن الحياة . وإذ اشتق الذهن العربي كلمة « رشيم » التي تعبر عن حدسه في الخليه المولدة من رشم بمعنى رسم ، دل على نشوء الأنواع ، إن لكل نوع من الاحيـاء مصيره المحدد له منذ البداية فمستقبل الأسد مثلا ـ انكشاف لما انعقدت عليه الحياة في رشيمه كما أن مستقبل ابن الوأواء انكشاف لما انعقدت عليه الحياة في رشيمه الخاص .

ومن وجهة نظر اخرى اتخذ الذهن العربي كلمة « مصور » للتعبير عن حدسه في أصول روائع الفن والاخلاق . فكلمة « مصور » من التحفة الفنية بمثابة الرشيم من الكائنات الحية . وكما كانت كلمة « مصور » تتضمن اتجاهي حدس الصورة :

الصور (الشكل) والصيرورة ، فقد بدت للذهن العربي المعاني منطلقة من فوق سلسلة الحوادث منطلقة وهي تحمل هوية معينة . ونحن نختار كلمة (مداد) Rythme الحاصل تكوينها من تصالب بين المدة والامتداد للتعبير عن الحركة التي بها يندرج المعنى في نسيج الكائنات . مثل المصور كمثل الرشيم ، كلاهما يبزغ من فوق سلسلة الحوادث وكلاهما ينتشر نامياً في ظرف حاصل من تصالب بين الزمان والمكان . وهكذا تتجلى الحياة في جميع مراحلها (كمنظومة آمدة Systeme se rythme .

في الهيجان يخلق الشعور عبارته منظومة من الآمدة ذات طابع بديء . والمصور هذا ينمو باستقطابه العبارات الجاهزة في الجسد . مثل الشعور في استقطابه العبارات الجاهزة كمثل شاعر يستعين بالكلمات المتعارف عليها للتعبير عن الهامه ذي الطابع البدئي . ولما كانت البوادر متنوعة وكان احداها الصوت فقد اختار الذهن الصوت وسيلة بيانية يعدل به البوادر الاخرى ، كما نعدل بالعملة السلع المختلفة ، واما ما جعل الذهن يصطفي الصوت من بين البوادر هو خضوعه للارادة وصلاحه للانتقال عبر المكان ، وهكذا

أصبح الصوت اداة للافصاح عما تختلج به النفس من جهة ، ووسيلة للتفاهم والتعاون بين الاخوان من جهة اخرى .

ومن الوسائل التي توسلت بها الحياة للتعبير عما يختلج فيها من معان وضع الجسد (حركاته واشاراته) كما هي الحالة عند الصم البكم ولكن سرعان ما استعاضت الحياة عن وضع الجسد بالصوت لما في ذلك من تخفيف للجهـد المبذول في احداث العبارة . ولم تبق الحياة عند حدوث الصوت فقد استعانت أيضاً بحس الرؤية لمـا في ذلك من تلون ودقة . وهكذا أصبح الصوت المعـادل في البيان للاحساسات الاخرى . وهكذا أصبـح حس الرؤية أو ما يعوض عنه بالخيال المرئي في تعيين الارتباط بين الصوت وبين الحالات الوجدانية المنوي التعبير عنها كمثل الرصيد المالي في تعيين قيمة الأوراق المالية . وها نحن نوضح الرأي المتقدم بالأمثلة التالية .

الملح . محل التحسس به اللسان ، ولكننا نشخص هذا الحس بصورة مستعارة من حس الرؤية . فكلمة « ملح » ترجع باصولها الى « مل » والملة هي الرماد ، ومن الرماد انتقل الذهن الى الملح الذي نطعم به الطعام .

خش ، محل التحسس بالخشونة ، الجلد . ولكننا نشخص هذا الحس بصورة مستعارة من حس الرؤية إذ ان الكلمة ترجع بالاشتقاق الى صوت « ءش » الصوت الذي يحصل من جسم متحرك في العشب .

وبعد ذلك ، نعود الى موضوع حديثنا وهو أن الكلمة صورة ، فضلاً عن انها عبارة يعبر بها المعنى عن ذاته . بدأت الحياة بالتعبير عما يختلج فيها بكلمات ذات مقطع واحد . وعندئذ كانت العلاقة بين الصوت والمعنى علاقة طبيعية بمعنى أن المعنى هو صدى حدوث الصوت في الوجدان ، ولكن لما أخذ الذهن يستعين بالأصوات الطبيعية علاوة عن الأصوات المحدثة في الفم أو عن الأصوات المعبرة عن الهيجان لما اخذ يستعين بها في صوغ كلامه بدأ يراعي الصناعة في هذه الصياغة ، متوخياً السهولة والرشاقة ولو أدى ذلك الى الخروج عن القواعد واليك موجزاً عن النهج ، الفني الذي سلكه في تحقيق ذلك :

١ ـ يبدأ الذهن العربي بالحركة ولا يقف على الحركة ولذا فانه يحدث تعديلاً في بنية الكلمة تحقيقاً لهذا المبدأ : ابن من البناء ، انا من نه ، انقطع من نقطع ، انكشف من

نكشف ، ادخلت الهمزة تسهيلاً للتلفظ . أسماؤه بدلاً من سماؤه . هذا خالد بدلا من هذا خالدٌ عــلامه بدلاً من علام . . . الخ .

٢ ـ تطور الحركة في صلب الكلمة تبعاً لطبيعة حرف البناء الذي يكتنفها . تقترب الفتحة من الالف بين الحروف : غ ، ع ، ح ، خ ط ، ظ ، ص ، ض . لعب ، خمر . . الخ . وتقترب الكسرة من اليـاء : علم ، قشر . . الخ . والضمة تقترب من الواء : حسن ، لطف ، عمر . وفي أحوال اخرى تستدق الحركات : كتب ، مركب ، .

٣ ـ التطورات التي يحدثها الذوق العربي من حـذف أو قلب أو تسكين في حروف العلة (الاعلال) : يرث (والأصل يورث) وقــال (والأصل قول) ، ويمشى (والأصل يَمْشِيُ) .

٤ ـ الابدال وهو ازالة حرف ووضع اخر مـكانه : دعاء ، والأصل : دعاوٌ ، وبناء (والأصل بناى) ادعى وأصلها ادتعى . واذدكر (واصلها : اذتكر) وازدهى (واصلها ازتهى) ، اصطفى (وأصلها : اصتفى) ، امحى (والاصل انمحى) . الخ . . .

٥ ـ الادغام : ادخال حرف في حرف آخر من جنسه بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً . والادغام يكون في الحرفين المتقاربين في المخرج كما يكون في الحرفين المتجانسين مد ، يمد ، مُد (وأصلها مدد ، يمدد ، مدد) .

تلك هي الكلمة العربية صورة مؤلفة من عناصر صوتية على مثال الانظومة ، وهي ككل انظومـــة تجيب على ضرورة بيانية وعلى ضرورة فنية أيضاً (الرشاقة والسهولة) .



بين الاسم والفعل

جرت العادة على تقسيم الجملة الى فعلية واسمية والفعلية أصل ، ان أول ما أثار انتباه الذهن العربي واهتمامه الحركة، لا الشيء المتحرك ، مثل الذهن العربي بذلك كمثل الاحياء نفسها ، فلما يظهر الخيال على الحائط متحركاً يقف القط أمامه مدهوشاً . ولكن إذا ما ثبت الخيال انصرف القط الى سبيله . وكثيراً ما تتقي الحيوانات عدوها بلجوئها الى السكون ومن هنـــا كان استخدام كلب الصيد لايقاظها فسهولة اصطيادها .

وعندما نقيم المقارنة بين جمـــلة عربية وجملة اخرى مقتبسة من احدى اللغات الحديثة كاللغة الفرنسية مثـلا ، نرى الاختلاف بينهما ، من حيث ترتيب مقوماتها ، جليا . تبدأ الجملة الفرنسية بالفاعل ثم يليه الفعل . . بينما الجمـــلة العربية تبدأ بالفعـــل ، ثم يليه الفاعل وأخيراً الملحقات المتممة للمعنى .

والى جانب الاختلاف المتقدم بينها ، نجد بعض الكلمات في الجملة الفرنسية تحمل طابعاً سلبياً أمثال : (Infini, impossible , irregulier) . . الخ . وأما الجملة العربية ، فتبقى فيها الكلمات صوراً ذات طابع ايجابي . والسلب في اللسان العربي يقتصر على الجملة ، ما بريت القلم . ولدى التأمل يبدو السلب ملحقاً عرضاً بالجملة العربية إذ أن الاعراب لايطرأ عليه أي تعديل بعد السلب ، على ما كان من ، قبل أي الاعراب وهو وظيفة الكلمة في الجملة يبقى واحداً في حالتي السلب والايجاب .

ونحن نستخلص مما تقدم أن اللسان العربي بدأ مع يقظة الحياة على المعنى ، بينما اللغات الحديثة الاخرى تحمل طابع المنطق أي ما يبني العقل والعقل وحده يهتم بالموضوع ، بالفاعل والعقل لوحده يفترض المتناقضات ويتبنى أحدها .

خص الذهن العربي كلا من الفعل والاسم بعلامة مناسبة ، خص الفعل البدائي بالشدة علامة تواصل الفعالية : بتّ ، خرّ ، نزّ ، ترّ ، فقّ . . الخ . أو بالرجع : فقفق ، خرخر ، نزنز ، ترتر الخ . . كما خص هذا الذهن الاسم

بالنبرة التي تعبر عن حدث يخل بسكون الطبيعة . والفعل يقسم من حيث الزمن ، الى ماضي ومضارع ، كما يقسم الاسم من حيث الجنس ، إلى مذكر ومؤنث والشبه في الاعراب بين الفعل والاسم يكشف عن أن المبدأ في التمييز هو الفعالية والركون ، فالمضارع والمذكر ينزعان الى الفعالية والماضي والمؤنث يلزمان الركون ، وكنا قد بينا في محل آخر من هذه الرسالة أن المضارع حاضر ينزع الى المستقبل واعرابه الضمة . تعبيراً عن نزعته ، وكذلك الاسم المذكر . والضمة تفيد معناها هـذا بحسب نمط حدوثها من تدافع الصوت ، وأما الماضي فبناؤه على الفتح تعبيراً عن ركونه ، عن دخوله في عالم الامكان والفتحة تفيد معناها هذا بحسب حدوثها من ركون اللسان عند خروج الصوت . وكذلك علامات التأنيث التي هي تحولات حركة الفتح : ة ، ي ، أ .

تساءل النحويون أيها أسبق في الظهور الفعل أم الاسم . هذه المناقشة قد طرحت على مستوى آخر بين ممثلي الثقافة السامية والجرمانية . وردت في الانجيل أية تلخص وجهة الساميين في المشكلة المطروحة وهي : في البدء كان الكلمة .

ويرد غوته شاعر المانيا على الحكمة السامية بقوله : (فأما أنا فأقول انه في البدء كانت الفعالية ، والاختلاف بين الساميين والجرمان يرجع الى أيهما أسبق الواقع أم المثل الأعلى ؟ ونحن نعتقد بأن الحقيقة هي أنه ليس ثمة انفصام بين الواقع والمثل الأعلى ، فيسبق أحدهما الآخر ، فالواقع يدعو ، والنفس تجيب على الدعوة بصيغة مثلى كما هي الحالة بين الدائرة المرتسمة على اللوح وبين تعريف الدائرة الذي يجيب به العقل تعريفاً مستوفياً شروط مقوماته الأساسية . وليس الواجب إلا الاستجابة القوية على خلل في بنية الحياة (الرحمة) أو في بنية المجتمع (العدالة) وذلك ما يدعو الى القول ان الفعل والاسم هما حالتان للمعنى المنبثق من الملأ الأعلى (الحدس) والصورة الصوتية التي يتمثل بها المعنى هي المصدر . والمعنى المنبثق نزوع ويحمل هويته الخاصة كمصور حتى اذا ما تبنته الارادة اكتسب بهذا التبني الفعالية المدرجة في نسيج الزمن فأصبح فعلا . وأما الاسم فهو المعنى مستفاض في المكان ، واقتراب الكسرة وهي خاصة بالاسم والسكون وهي خاصة بالفعل يزيل ثنائية التقسيم بين الفعل والاسم في الاعراب المعبر عن وظيفة الكلمة في الجملة .

يقف الذهن موقف المقبل على الأحداث أو أنه يعرض عنها . فاذا هو أقبل عليها حول الفعالية الى المضارع أي حاضر ينزع الى المستقبل ، وإذا هو اعرض عنها حولها الى ماض مندرج في عالم الامكان . والمضارع أصل وعلامة اعرابه التي هي الضمة بيان الفعالية تدل على ذلك كما حصل المؤنث من الحاق احدى علامات التأنيث التي هي تحولات الفتحة ، بالمذكر . واشتراك المضارع مع الفاعل في علامة الاعراب دليل على أن الفعالية أصل والسكون انما هو حالة مشتقة . موقف الذهن من الأحداث وتحويله اياها الى فعالية أو سبات يذكر بذُكاء « الشمس » التي من اسمها اشتق الذهن العربي كلمة « ذَكاء » في النفس . تشرق الشمس على الأرض فتبعث باشراقها الحياة في الاحياء (يتفتح الزهر ، وتغرد الطيور وتسرح الحيوانات .. الخ وهي أي الشمس إذا غربت انتقلت الأحياء الى سبات . وقد خص الذهن العربي بحالتي اليقظة والسبات الوجدان الضمير . حالة الوجدان هي اشتراك الاحياء في اليقظة ، وحالة الضمير هي حالة السبات . وكلمة « ضمير » تعبر معناها باشتقاقها من

خمر بمعنى اختفى وهزل . وكأني بالحالات المنطوية في عالم النسيان تفتقر عودتها الى ساحة الشعور الى شفق الذكاء .

وعندما نقيم المقارنة بين شكلي الفعل : الماضي والمضارع نجد بساطة الأول حتى الاهمال وزخرف الآخر بمعنى اكتنافه بالضمائر (الجنس والشخص والعدد) . وفضلاً عن ذلك نجد المضارع يحتمل حالات مختلفة : حاضر ، حاضر نزاع الى المستقبل ، الجزم (كان محتمل وقوعه ولم يقع) النصب محتمل الوقوع في المستقبل . في هذه الحالات تتكيف علامة الاعراب من ضمة الى سكون فالى فتحة . وإذا ما اقيمت المقارنة بين اللسان العربي وبين احدى اللغات الحديثة كالفرنسية مثلاً نجد البون شاسعاً بين ذهني العرب والفرنسيين ، اهتمام العرب بالمضارع واهتمام الفرنسيين بالماضي. ونحن نستخلص من المقارنة الفكرة التالية :

ظل الذهن العربي منساقاً بغريزة الحياة في تطلعها نحو المستقبل بينما كان الآخرون أميل الى الماضي (الذهنية الرجعية) امة بدائية وامة تاريخية .

تدل مسميات الاعداد باشتقاقها على أن مفهومي التعداد والمكان صنوان ، وان كليهما قد نشأ نشأة عقلية . الحس

يوحي والعقل يرفع بالمحسوس الى الصيغة المثلى . فاسم واحد مشتق من الحد ، والاثنان من ثنى (حدين) والثلاثة من الثلة (ثلاثة حدود) والاربعة من التربيع (أربع حدود) والخمسة من خمص اليد (الاصابع الخمسة . والوحدة الرياضية كثرة تم ادراكها من خـلال وحدانية (أنا الحية) ومن هنا كان امكانية تجزئة الواحد الى كسور غير متناهية ، انها كثرة من خلال العينية المفترضة من قبل العقل .

لقد بدأ الجمع للذهن العربي ساكناً كما تبدو لكل منا جمهرة الناس من بعيد ، ومن هنا كان التقاء الجمع مـع المؤنث في علامـة الركون التي هي تاء القصيرة الحاصل تكوينها من الفتحة . ومن هنا كان اسم المرة بتحديد اسم المصدر (نصرة) ومن هنا كان اسم المبالغة المعبر عن حالة النمو بالتحديد : علاّمة . وإذا سقطت علامة التأنيث مع المؤنث ، فذلك لأن الذهن العربي ينفر من حالة السئم التي يسببها التكرار . وأما أمر تذكير الواحد والاثنين مـع المذكر ، وتأنيثهما مـع المؤنث فيرجع الى التباس نشأتهما بالحياة الاجتماعية وبعد ان تم تمييز الجنس بينهما .

يختلف الفعل مع اختلاف الجنس : قام الرجل ، قامت المرأة ، ولكنه يستقل عن العـــدد : قام المؤمن ، قام المؤمنون . . إلا اذا انشأ العقل الجملة ، فعندئذ يخضع العقل لحكم العدد المقدم على الفعل : المؤمنون قاموا .

يميز الذهن العربي بين الأشياء والبشر ، فيخص هؤلاء بعلامة هي مفخم علامــــه المفرد مؤمن مؤمنون ، مؤمنة مؤمنات . بينا علامة جمع الأشياء (الجمع المكسر) يتبع وقع الأشياء نفسها على الذهن : كرمي كرامي ، بيت بيوت . . الخ .

وفي الختام نقول : حذار من الدخلاء على حرجنـــا المقدس ، انهم يفككون اواصر كلامنا فيجعلون كلماتنا على امثال الأوراق المنفصمة عن اغصانها : رموزاً هامدة .

نقدم من كتابنا العبقرية العربية في لسانها هنا مثالين عن النهج الذي سلكناه في دراسة هذا اللسان .

ذكاء

ان كلمـــة ذكاء ، مشتقة من « ذك » وهي صورة صوتية مدادية تنطوي مع اخواتها : « صك » « ضك »

« دك » على اتجاه يتضمن معنى الاحتكاك « الدلك » بحسب بيان الحرف « ك » والكلمات المعبرة عن بعض تجليات الحدس الحسية هي : « ذكت » النار ، اشتد لهيبها « ذكى » النار أوقدها ، الذكوة ، ما يلقى على النار فتذكى به ، « الذكاء : الجمرة المشتعلة ، ذكاء : اسم علم للشمس (تفيد هذه الصورة الشدة والاشتعال) « المذكى » من السحاب : غزير المطر ، « ذكى » الرجل : تقدم في العمر وبدن ، « المذكى » من الخيل ، ما تم سنه وكملت قوته (وهذه الصور تفيد الشيخوخة باستكمال شروط النمو ، « الذكاء » : سرعة الفهم وحدته .

يتلخص من هذه الصور الحسية والمفهومات الذهنية ، المعبرة عن اتجاهات هذا المصدر ، ان الحدس العربي هو ان الحقيقة تستطع ، بتباين الافكار ، كما يحصل النور باحتكاك الاجسام . فكان الذهن العربي قد ادرك حدسا ، الشبه بين تحولات الوجدان من الابهام قبيل اليقظة ، إلى الوضوح فالتأجج ، عند استكمال شروط هذه اليقظة وبين الشمس الساطع نورها والحاصلة من تكاثف السديم وتبلوره فعبر عن « الذكاء » (النور المنبثق عن استجمام النفس ،

بكلمة « ذكاء » صورته المحسوسة ، فلخص بذلك عقيدة الاقدمين المشيرة الى أن الشمس رمز للاله ، كما لخص أيضاً الفلسفة اليونانية الحديثة التي تعتبر الذكاء معنى الوجود .

واذا كانت الموجودات تصبو الى الشمس ، مصدر انبثاقها ، فالحالات النفسانية أيضاً تصبو الى الذكاء ، النور المنبثق عنها ، وعلى شفق هذا النور ، تصطفي النفس الحالات المختارة وتحققها فيتضح ، حينئذ لغز الوجود ، كن فيكون .

وليس عبثاً إذا اتجهت انظار الانسان الى السماء ، حيث تفيض الشمس بنورها فتغمر به الكون إذ أنه أدرك ، بهذه الصورة قرارة نفسه ملقاة Projetée على الكون ، هذه القرارة التي ترتقي اليها النفس باستجمام تجلياتها ، فينكشف لها بنيانها ، حينئذ متحلياً بهذا النور المتكيف بالتسامي ، وكل درجة ارتقاء تمنح صاحبها افقاً متناسب المدى بالنفوذ .

ولئن كانت المعرفة الرحمانية ، مطلقاً تأثيرها في سلوكنا فالمعرفة الكونية تتحقق أيضاً بواسطة بنيان بدننا المجهز بمنظومات مدادية Systemes de rythme متفاتة التفرع ، ذات بنسان رحماني Sympathique أصيل .

فبذلك يكمل الشبه بين « ذكاء » وبين صورته الحسية « ذكاء » التي تزيد من امكانيتنا العملية .

اسم الكيفية

كنا قد أوضحنا في بحث النسبة الحدس العربي بتمييز الصفة ، أو الحالة المنبثقة عن ذات المفهوم ، من الصفة المنسوبة اليه . فقد عبر الذهن العربي عن حدسه في الحالة الأولى بالكسرة أو بحرف الياء مفخم الكسرة مندمجة في صلب الكلمة ، وعبر عن الحالة الثانية باحدى هاتين الحركتين الا انهما ملحقتان بالكلمة . وكنا قد ألمحنا أيضاً الى أن هذا الفرق ليكشف عن اتجاهي البنيان النفساني ، أي الانبثاق والتلازم : انبثاق في الحالة ، وتلازم في النسبة بحيث تتضح الحالة المنبثقة ، فيحقق (النهج التحليلي) . والمعرفة وان ابتدأت بالتلازم فهي تنتهي بالانبثاق غايتها (البصيرة) فتسير بذلك على عكس نمط الوجود . وإذا كان الخيال يحصل من انعكاس الأشعة المنبعثة عن صورته ، ومن تحدد هذه الأشعة في المرآة ، فالاشياء والطبيعة المتألفة من هذه الأشياء ، هي أيضاً خيال الحقيقة المنطوية عليها نفوسنا . ولكنه على عكس السابق خيال يحصل من تحقيق امكانيات علمنا وعملنا في الكون .

ولئن كانت المرآة توقف الأشعـة ، فالكون يكشف بالنسبة للنفس عن الوجود ويحققه . وهذه الامكانيات وان بدرت من فوق المكان موحدة فهي بتحققهـا تبدو من خلاله متفرقة ، وذلك بتلازم حصولها مع حدوثه (أي المكان) فاذا ما استجمت هذه الأشعة « الامكانيات المتجلية » في وحدة ادراك « بصيرة » انقشع حينئذ حجاب المكان وزال الافتراق فسطعت آية Idée الطبيعة حقيقة في النفس وان النفس لتنمو بتجاوب قطبيها ، الخيال وآيته أو الطبيعة والملأ الأعلى . أما الفكرة المجردة فكائنة بين الخيال والآية . إذ انها تقتبس عن الأولى عناصرها وعن الثانية وحدتها وقد خص الذهن العربي بعبارة الفكرة المجردة اسم الكيفية (فانشأه من النسبة باضافة (ة) الى اخرها فأشار بذلك الى تولدها مع المكان وثبتها فيه .

فمن عقل مثلا عقلي ، عقلية ، ومن ذهن ، ذهني ، ذهنية جسم جسماني ، جسمانية روح ، روحاني ، روحانية .

☆ ☆ ☆

وجهة التطور في اللسان العربي

لقد تطور كل من زمرتي لغات أوربا الحديثة واللسان العربي في اتجاه مباين للآخر . تطور اللسان العربي نحو بنيان عضوي ، تستكمل به الكلمة شروط كيانها بالتعبير عن إنسانية متسامية ، وتطورت اللغات الاوربية الحديثة نحو بنيان ميكانيكي ، تتحول بـه الكلمة من صورة الى رمز يلتحق بـه المعنى عرضاً واتفاقاً . ثم إن كلا من هذين التطورين انتهى به الأمر الى نتائج خطيرة في ثقافة أصحابه ، الساميين أو الآريين ، فرعي العرق الأبيض .

وإلى هذا الاختلاف في التطور ، يرجع التبـاين في البنيان بين الذهنية العربية السامية وبين الذهنية اليونانيـة الأوربية . فقد تحولت الأولى الى ثقافة ذات طابع رحماني ، وتحولت الثانية إلى ثقافة ذات طابع نسبي .

فما ان تحولت الكلمة في اللغات الاوربية الحديثة من صورة الى رمز يتصرف به العقل كيفما شاء ، متخذاً منه

أداة ، حتى مهدت لمتكلميها السبيل إلى فقه حدس اللانهاية ، الحدس الذي بلغ به العلم غايته من إيجاد قوالب رياضية ، تندرج فيهـا الحوادث الطبيعية ، فتشف على الفهم وتخضع لطائلة الارادة ، وعندئذ اكتسب الذهن الاستعداد لادراك النظام قانوناً في الكون وعدلاً في المجتمع وعقلاً في النفس .

وما أن رسخ التلازم بين الصورة والمعنى في اسرة الكلمة العربية ، حتى أخذت المدلولات الحية والمفـاهيم العقلية تتجاوب فتذكي بتجاوبهـا صبوة الذهن العربي الى الحقائق المنطوية عليها النفس الانسانية ، ذكوة يتخطى بها المرء نسبية المظاهر مرتقياً نحو الوحدانية المطلقة .

إنّ الاختـلاف بيننـا وبين غيرنا من الأقوام ، لم يقف عند حد التباين بين الطبيعة والانسانية ؛ إذ أنّ العقل الأوربي ، بتأثير نزعته إلى النسبية ، أخـذ ينحدر نحو سطح الحياة فيتحوّل بانحداره من نام إلى راكد ، وأخذت نزعته هذه تشتد وتقوى ، لمسايرة صاحبها للعلوم الطبيعية ، حتى انتهى به الأمر إلى أن عدّ الوجدان ، على غرار الطبيعة ، مؤلفاً من صور يدعو بعضها بعضـاً وفق قوانين معينة ، كتداعي الحوادث الكونيـة في الطبيعة . وإذ

زعم « هيوم » بأنّ الحالات النفسانية تخضع بتداعيها للعادة خضوع الحوادث الكونية للعطالة ، فانما كان يرجو إبلاغ الفلسفة كمالها مثلما أبلغ معاصره وابن جنسه « نيوتن » للعلم غايته باكتشافه نظام الجاذبية العام . ولكنّ خيبة « هيوم » في الفلسفة ونجاح « نيوتن » في العلم خير دليل على الاتجاه الأصيل لتفكير أعلام أوربا .

إنّ نزعة الذهن الأوربي هذه إلى إدراك الانسانية من خلال الطبيعة قد ظهرت ، من قبل ، في الفلسفة اليونانية ، وما كانت المحاولة التي قام بها فلاسفة اليونان الطبيعيون ، لارجاع الطبيعة والانسانية معاً الى مبـــدأ مشترك بين الـكائنات ، إلا محاولة تغلب فيهـا التفكير بالتداعي على التفكير بالمصمّم ، أي محاولة قام فيها التأويل بالأسباب والنتائج مقام الايضاح بالابداع والانبثاق . أفلا يرجع إلى هذه المحاولة أمر ظهور القدر مسيطراً على الحياة ؟ وأمر ظهور الوجدان تاريخاً سرمدياً ؟

وأما الانقلاب الذي أحدثه « سقراط » بتوجيه التأمل نحو المفاهيم في حالة انبثاقهـــا من النفس ، فانه ، على رأي « أفلاطون » (تلميذه ومدوّن فلسفته) يرجع باصوله

إلى مبادىء دخيلة على بلاد اليونان ومع هذا « فسرعان ما طمس اليمُّ مجرى الباخرة » .

وبينما كان الذهن الاوربي يتحول من النسبية إلى المادية ، كانت الكلمة العربية ، بتلازمها مع شقائقها ، تمهد لذهن صاحبها سبيل الصعود الى الآيات في مصادرها ، تمهيد الانغام سبيل ظهور الالهام في الوجدان .

إنّ الكلمة العربية لهي عبارة شفافة تنم عن معناها فتذكي صبوة الذهن نحو الملأ الأعلى ، ذكوة تتناسب شدتها مع رفعة الصعود في هذا المنحنى ؛ وإذا ما ألمّ الانسان بأصول مظاهر الحياة المتبلورة حدوساً في هذا اللسان ، انكشفت له الآية حقيقة انسانية واتضحت عندئذٍ له حكمة وجود الانسجام بين مظاهر اللسان المختلفة .

إنّ اللسان العربي ببنيانه ، ليكشف عن نمط الوجود في حالتيه : الطبيعة والتاريخ ؛ فتدل فيه المصادر والمفاهيم المنطوية عليها على وحدانية الانبثاق وانسجام المظاهر ، وتدل الافعال الحاصلة من المصادر على تحول الكائنات الدائم . وإنما أسماء الجنس حدس المصادر المتبلورة معانيها في أشياء مستفاضة أو في صفات منبعثة انبعاثاً .

ولما كانت الكلمة العربية بادرة طبيعية ، تتمتع بالتعبير عن الهيجان وبنقله إلى الآخرين ، فانها تؤثر ، بايجاد التفاهم بين الناس وبخلق التعاون بينهم ، على تحقيق الأهـداف المشتركة ؛ مما دعا إلى القول المأثور : إنّ من البيان لسحراً .

فلئن كانت الكلمة العربية تؤلف بين ال « أنا » و ال « أنام » بالمشاعر ذات البنيان المشترك ، ولئن كانت توجه الذهن نحو المعنى ، باشتراكها في النزعة مع شقائقها ، فقد أصبح صاحبها اكثر قابلية من سواه لفقه الانسانية . والكلام العربي ، إذ يخلق بمنظومته الانسجام في النفس من جهـة والانسجام بين النفوس من جهة أخرى ، ليجعلُ الحياة تفيض بالمشاعر وتحمل صاحب هذا الفيض على التضحية مهللاً .

إن الاختلاف بين اللسان العربي واللغات الاخرى ، إنما هو اختلاف بين الفطرة والعادة ؛ مثله كمثل الاختلاف بين الينابيع المتدفقة وبين الآبار ذات الاقعـار المتصلة . الآبار التي يكلّف فتح مجراها الكثير من الجهد ، وتعجز مياهها عن تطهير هذا المجرى .

أما إذا زاغت الكلمات العربية عن حدسها ، فانّ المؤسّسات المشيدة عليها تتقلّص ، وعندئذ يصبح المجتمع

مشلولاً كالجسد الذي خرجت فيه العظام من أحقاقها .

يحدث هذا الزّيغ من تداخل الميول بتأثير المجانة ، فضعور القيم الرفيعة من جراء هذا التداخل ، حيث تتقمص المفاهيم صوراً هجينة .

إن ما يجب علينا ، والحالة هذه ، أن نبدأ بعثنا القومي ببعث كلامنا ، وأن نحذر على حرجنا المقدّس هذا من الدخلاء على بيئتنا .

* * *

اصالة المعنى في الكلمة العربية

لدى اقامة المقارنة بين اللغة العربية وبين لغة اخرى كالفرنسية مثلاً ، يتبين ان جذور الكلمات الفرنسية في التاريخ ، وجذور الكلمات العربية في ما قبل التاريخ ، في الطبيعة . ونحن نعني بذلك ان كلاً من الكلمات الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين ، من تحوير احدى كلمات اللغة اللاتينية . ومن هنا أيضاً أتى اعتبار الفرنسية لغة مشتقة لا أصيلة وما قيل عن الفرنسية ينطبق على لغة الأم اللاتينية ، إذ أن كلاً من كلمات هذه اللغة قد حصلت بدورها من تحوير كلمات اللغة الهندية ـ الاوروبية ارومة اللغات المنتشرة من شمالي اوروبا حتى جنوب الهند ـ واللغة الهندية ـ الاوروبية ذاتها ليست بدائية ، تضيع جذور كلماتها في مجاهل التاريخ .

وأما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي ترجع كلماتها جميعاً الى أصوات طبيعية . والأصوات التي منها صنفت

العبقرية العربية اداة بيانها هي أولاً بادرة الهيجان الصوتية وهاك مثالاً عنها : كلمة « حب » ذات نشأة صوتية تشترك مع (هب) و (أب) فتعبر عن معنى الظهور والاعتلاء ، معنى تنطوي عليه عبارة الهيجـان التي تحصل لدى القفز في الهواء وربما كانت كلمة (up) الانـكليزية راجعة بنشأتها الى هذا التعبير الطبيعي . أما الأحرف الأولى المتحولة في هذه الكلمات أي أحرف (ح) و (أ) و (ه) المتقـاربة بالمخرج فتعبر عن تلونات الحدث المنطوية في تلك النشأة .

ومتى تعتلي الصورة في الذهن فتظهر على سواها فيه ؟ أليس لدى توجه الذهن اليها بالانتباه ؟ لكن الانتبـاه ينطوي على ميل النفس بمثابة الأبرة من الحاكي . ان العلاقة بين الميل وغرضه على مثال العـلاقة بين الانشودة المسجلة على الاسطوانة والأبرة : هذه تبعث بالتموجـات الصوتية المحفورة في الاسطوانة اخاديد وذلك تبعث بالحركة . وكذلك هي العلاقة بين الأشياء والغرائز وبين التحفة الفنية والالهام . وإنما شخصية المحبوب هي صورة روح من يحب ، صورة مجسدة .

الا أن الغرض يرمز الى نزعته رمزاً فاذا ما قصر شخص المحبوب عن مثله الأعلى (نموذجه) لجأ المحب الى الخيال

كيما ينشىء صورة مثلى يعوض بها عما كان من تقصير في الواقع . وليس لسبب آخر ترجع الخيبة في الحب . ان الحب حدس ندرك به المستقبل جملة ادراكا تبعث بـه امـكانيات الحياة امنية ورجاء واذا كانت هيئة المحبوب توقظ كوامن الحياة وتساعد على استجلاء الصورة المثلى في الوجدان ، فان الصورة المثلى أيضاً تفضي من روائها على سبب انبعاثها فتجعله اقرب الى الكمال . ان شأن الحب هو ان يجعل الحياة تستجلي نماذج ذوات معالم أوضح فأوضح .

ويبدو الحب أمـا كميل يتجه نحو الواقع وأما كصبوة تتجه نحو المثل الأعلى فهو ينزع في الحالة الأولى الى صبوة جذورها في الجسد ، ويصبو في الحالة الثانية الى حيث يستقر المثل الأعلى فيعوض بالرفعة على صاحبه عن قصور الواقع . ولكن لما كان سبيل الامكان متشعباً وكان ما يؤدي منه الى المثل الأعلى ضيقاً حرجاً اصبح الحب لا يبلغ مداه الا في النفوس المجهزة بفسحة الخيال وبذوق عريق في الاصالة . ان الحب هو الشعور بروعة المثل الأعلى المتجلي في نفس الذي يهوى .

وقد استعانت العبقرية العربية في انشائها الكلمات بالأصوات التي تحدث في الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء ، « و ه ش » الذي يحصل من دخول جسم متحرك في العشب ومنها حس وخش وعش . . الخ ومن عشّ اشتق الذهن العربي كلمة « عشق » بالحاق حرف (قاف) بـ (عشّ) ، الحرف المعبر عن المقاومة . يفيد هذا الاشتقاق ان الغرض من العشق هو انجاب البنين (امتداد لعش الطائر) . أما المقاومة هي هنا الدلال فهي وسيلة تثير بها المرأة كوامن حياة الرجل وتذكيها بغية انجاب أجيال أكمل فأكمل . فالعشق ينطوي اذاً على الاصطفاء وعلى نزعة الحياة الى التطور والكمال . أما الخطوبة فتبشر باصولها (خط) الى التشبث والاقدام ، الى الحدس المتضمن كل المستقبل الذي يكاله الزواج حسبما تشير هذه الكلمة الى عودة الرجل والمرأة الى الوحدانية المثلى (وحدة الزوج) .

وثمت أصوات تحدث في الفم ، استعان بها الذهن العربي في التعبير عما يجيش في النفس كصوت قضّ ومنها قضم وقضب . . الخ .

وفضلاً عن ان اللسان العربي بـدائي النشأة ، فان كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفوياً ، من انبثاق المعنى دون طائلة العقل . هذه الحقيقة تدل عليها امور مختلفـة منها : ان أصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير الى العلاقة بين اللغــة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة .

ونحن نستخلص من ذلك ان معاني الكلمـات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلا مستقلا عن اجتهاد المجتهدين . فما للذهن الا أن يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي انشأها . وهكذا تلتقي الأحفاد مـع الأجداد في تجربة الحياة الأصيلة . بل هكذا ينشىء النوابغ صرح الثقافة من الحدس المشترك في الحقيقة ، بينهم وبين الجمهور . وأمـا شأن الخيال من استجلاء الحدس المشترك هذا فهو بمثابـة الموسم في استجلائه كوامن الحياة في بذور النبات .

ان ما يساعد الذهن على استجلاء المعنى هو الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات العربية بحيث تصبح الكلمة في اسرتها كالنغم في تضافره مع شقائقه الانغام في دعوة الالهام الى

البدور في ساحة الوجدان حتى لكأن الكلمات في الاسرة الواحدة من الحدس المشترك بينها بمثابة القصيدة من الهامها . وان كان الفنان في انشائـه الصور المجازية أكثر حرية من الجمهور في استجابته على المسببات في وضع الكلمات . ونحن نعني بذلك ان الكلمـات نوعان : نوع يعبر عن الأشياء الحسية وآخر عن المفـاهيم المجردة . والكلمات الموضوعة للتعبير عن المحسوسات ساير الذهن في وضعها الحاجات المادية فهي مع ذلك تصبح تعاريف بالاشارة للمفـاهيم المجردة كتعريف الشريعة بالشارع . وبينما تبقى الكلمـات المعبرة عن المحسوسات خاضعة لمقتضيات الطبيعة الخارجية ، تتحرر المفاهيم عن تلك المقتضيات فتصبح تجليات للحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق . حتى اذا ما استقطب الذهن هذه التجليات اتضح الحدس وضوحاً تامـاً ، كي يتضح معنى القصيدة لدى المام الذهن بمقوماتها .

* * *

الكلمة العربية ذات نزعة مثالية

لدى اقامة المقارنة بين اللغة العربية واللغة الفرنسية يظهر اختلاف آخر بينهما ألا وهو ثبات الاولى وتحول الثانية تحولاً دائماً . ان اللغة العربية تتمتع بالخلود بمعنى تبقى الحروف في الكلمات ، والكلمات في بناء الجملة محتفظة بالشكل الذي اختاره لها الذهن العربي فاستقر عليه . غير أن اللغة الفرنسية تتحول كلماتها وقواعدها من جيل إلى آخر تحولاً يتعسر به على الأحفاد فهم الأجداد ، مما يلجىء الخلف الى الاستعانة بالترجمة للاستفادة من تراث السلف . هاك قصيدة عربية من العهد الجاهلي لقس بن ساعدة الايادي ونترك للقارىء الاختيار لقصيدة فرنسية ترجع بالوضع لعهد شارلمان المعاصر لهرون الرشيد . ولو أقيمت بينهما المقارنة تبين صدق وجهة النظر المقدمة وأما القصيدة فهي :

في الذاهبين الاولين ... من القرون لنا بصائر

لـــما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوهـا تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع المـــاضي الى ولا من الباقين غابر
أيقنت اني لا محــا لة حيث القوم صائر

وأما السبب في خلود اللغة العربية فيرجع الى صدق البيان في هذه اللغة ، الى ثبات العلاقة بين الصوت والمعنى . كنا قد بينا أن للكلمات العربية ثلاث مصادر أساسية أولها الأصوات التي تقع في الطبيعة كصوت خرير الماء، وثانيها الأصوات التي تحدث في الفم وعندئذ معنى الكلمة هو صداها في النفس كصوت « بت » وأخيراً الأصوات التي هي بادرة الشعور في الهيجان كصوت « آخ » .

ولما كانت حروف البناء في الكلمة العربية تتحرك أما على الفتح وأما على الضم وأما على الكسر ، وكان معنى كل من هذه الحركات هو صدى حدوثها في النفس ، فقد أصبحت الكلمة العربية صيغة ينسج الذهن على غرارهـا المشتقات الاخرى . وهاك مثالاً من أمثلة لا تحصى توضح به وجهة نظرنا .

صيغة التصغير : رجيل (من رجل) . هذه الصيغة تقوم على تحريك الحرف الأول على الضمة ايذاناً بالفعالية (بحسب حدس حدوث الحركة في النفس) ، وعلى تسكين الحرف الثاني تعبيراً عن معنى الركون .

هكذا استوحى الذهن العربي صيغة التصغير من امرىء تظاهر بالشجاعة ثم تراجع متخاذلاً فأثار بتخاذله الهزء والسخرية وهناك صيغ الاسماء : الآلة والمكان والزمان والفاعل والمفعول . . وهناك صيغ الأفعال أيضاً : أفعل ، فعل ، استفعل ، افعل . . الخ . ومن هنا اقامة الموازين في اللغة العربية .

وأما نظام حروف البناء في الكلمة العربية فيتبع طبيعة الصوت مصدر الاشتقاق . ومتى الحق حرف ما بالصوت الطبيعي انسجم الحرف الملحق بالصوت تعبيراً عن المعنى الملحوظ أو المعنى المستحدث . هاك مثالاً عما نعني بذلك . نبغ .

في الأصل حرف « ن » يفيد ، بحسب حدوثه ، معنى الداخل المغلق ثم الحق ب « ن » حرف « با » تعبيراً عن الخارج فحصل من هذا الالحاق : نب . وهذه أصبحت أرومة لكل من : نبت ، ونبق ، ونبك ، ونبع ، ونبأ . الخ .

وكلمة « نبغ » التي استحدثت من نب بالحاق حرف « غ »
بها تعني الاعتلاء مع معنى الغموض . فكأن بالذهن العربي
يدرك بأن التفوق بين الاخوان يأتي من بزوغ الإلهام في
نفس النابغ ، من تحت الشعور . وبناء على ذلك فإن ثبات
الكلمة العربية يرجع إلى كمالها بانسجام الصوت والمعنى فيها .

هكذا ينسج الذهن العربي الكلمات المستحدثة على غرار
صيغ استقر عليها . والاستقرار يتبع الحركات التي تعبر عن
الوظيفة . والآية : لله المثل الأعلى في السموات والأرض ،
انما تعبر عن نزعة الذهن العربي إلى الصيغ المثالية . فكأن
الكمال هو الأصل في الذهن العربي . وأما الخطأ فيأتي من
الجنوح عن الحقيقة وكلمة « خطأ » نفسها تشير باشتقاقها
من خطأ إلى الحقيقة المتقدمة . وقد ترجع إلى نزوع الذهن
العربي الى الكمال نظرية ثبات الأنواع الحيوانية الواردة في
كتبنا المقدسة . أو ليست الأشكال الهندسية ذات التعريف
الكامل مظهراً للنزعه المثاليه ؟

وإذا ما بدا الواقع منحرفاً عن حقيقته ساور النفس
القلق وعندئذ تشتد النزعة إلى المثل الأعلى حتى تصبح واجباً
ملزماً للارادة . تعبيراً عن هذه الحقيقة اشتق الذهن العربي

كلمتي حق وحيق* (العظم) من نفس المصدر . فكأني بهذا الذهن يشير إلى ان الواقع من حقيقته على مثـــال العظم من حقه ، الانحراف يبعث في النفس الاضطراب والقلق وعلى قدر ما يبتعد الواقع عن الحقيقة يبدو الشوق إلى المثل الأعلى رجاء بعيد المنال كما هي الحالة في الشعوب الهجينة التي تستشف من خلال واقعها المزور حقيقتها .

يظهر التحول ، عندنا ، في اللغة من الفصحى في الجاهلية إلى اللهجة العامية في عهود الانحطاط ويظهر تحول آخر أيضاً مرافق للأول من وجهة نظرنا إلى المثل الأعلى . ان الجاهليين إذ كانوا يجعلون الحياة وقفاً لأغراض تتعداها كانوا مثاليين . انهم كانوا يرون المثل الأعلى في متناول يديهم ، مندمجاً فيهم ، قوام شخصيتهم . حينذاك كان المثال الأعلى من النفس كالتعريف الذي يبنيه العقل للدائرة من الدائرة الواقعة على اللوح ليس من انفصام بين الواقع والحقيقة ، أو من ابتعاد بينهما . فلما أجاب الرسول على سؤال وجهته اليه إحـــدى العربيات عما يجب على المؤمنة : أن لا تسرق ولا تزني فقالت صاحبة السؤال مدهوشة وهـــل تسرق الحرة أو تزني ،

يا رسول الله ؟ ولم يبد فيما ترك لنا الجاهليون من مآثرهم التضاد بين الرحمن والشيطان كما يبدو ذلك في آداب الشعوب السامية المتفرعة عن أرومة العروبة ؟ حتى لقد أهمل ، إذ ذاك ، الشيطان رمز الشر المضاد للرحمن اهمالاً كلياً . وهل يرجع السبب في الاختلاف بين الجاهليين وبين الشعوب السامية الأخرى لغير سبب الاختلاف بينهما في الأصالة ؛ ظل الجاهليون على الفطرة ، مقيمين قواعد الزواج على الاصطفاء في الأخلاق وظلت لغتهم ركائز تسند عقولهم في صبوتها الى المثل الأعلى . في حين كانت الشعوب السامية تنحدر بالهجانة مبتعدة عن حقيقتها بنسبة إيغالها في الانحراف عن مقومات الأخلاق . وهل للندامة والحسرة في الآداب الدينية معنى غير رؤية الواقع المنحرف على ضوء الحقيقة ؟ في جو كهذا يبدو المثل الأعلى أمنية بعيدة المنال ، يتوقف تحقيقها على عالم آخر .

ألم نعان نحن أحفاد الجاهليين ، ما كانت تعانيه الشعوب السامية من انحرافها عن الأصالة في البنية واللغه ؟ ألم نشعر من جراء الاختلاف بين العامية والفصحى ، بأن كياننا قد أصبح كالجسم الذي خرجت فيه العظام من أحقاقها ؟ لم تفقد الكلمة العامية بيانها وحسب ، بل أصبحت مشوهة يوحي تشويهها بشعور تخلف الشيء عن مقوماته الأساسية .

ألا يرجع لنفس السبب أمر تحول الشعـوب الحديثة عن المثالية إلى الوجودية ؟ ألا تدعو لغات هذه الشعوب ، بتحولها الدائم ، إلى نزعة انطلاق الغرائز والميول لسجيتها مستقلة عن مراقبة مثل أعلى يتعداها ؟ أليست الوجودية نظاماً فكرياً ، أقيم ، على صعيـد التأمل ، للتعبير عن تلك النزعه ؟

ولكن إذا كانت الغرائز تعين ، للحيوان حدود نظام حياته ، فان الميول ، عند الإنسان ، قد تنطلق متخطية حدود مايقتضيه نظام حياته بحيث يصبح العوبة تتقاذفها أهوائه . بدلاً مما ينسقها ويجعلهـا طوع ارادته ، وإذا مافقد الإنسان سيطرته على ميوله تحولت الحياة عن أغراضها عن حكمة وجودها الا وهي أن يكون سيد مصيره .

وذلك مايوحي بأن بعثنا القومي سيكون . في الوقت نفسه ، رسالة انسانيه تهتدي الأقوام على هدايتها سواء السبيل .



الطابع الشعري للكلمة العربية

ثلاث كلمات مشتقة من فعل « شَعَرَ » : شعور ، شِعر ، شَعْر ، توضح الحدس العربي في الشِعر والحدس يزداد وضوحاً إذا لوحظت العلاقة بين « شَعَرَ » وبين أرومتها « شعّ » فكأني بالذهن العربي يقول: إن الشعور ينبعث من الوجدان لدى التجاوب الرحماني بين الاخوان كما ينبت الشعر من الجلد ، وليس الشِعْر إلا عبارة الشعور. وقدر الشِعْر يتبع أمرين : عمق المعنى (الشعور) وبلاغة العبارة . ويكون التزام الشاعر بشعره بنسبة مايلخص حياته أي بنسبة مايكون عميقاً وأما الشعر المقتبس من الآخرين فمثله كمثل الشعر المستعار ، لايكلف التخلي عنه كثيراً من العناء .

مم يتألف الشعر ؟ من معنى ، ومن ايقاع صوتي تنتقل على موجه تجربة الشاعر الفنية إلى القراء أو إلى

المستمعين ، ومن خيـــال مرئي يضفي رواءه على العبارة الصوتية ، كما يبدو في البيتين التالين : أولهما لامرىء القيس والآخر لطرفة .

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى
بناظرة من وحش وجرة مطفل
سقتـــه أياة الشمس إلا لثاته
أسف ولم تكدم عليه بإثمـــد

وكذلك الكلمة العربية ، تتألف من صوت بياني ومن خيال مرئي ومن معنى قوام تآلفهما . وأما الخيال المرئي فتوحيه اخوات الكلمة ذات الطابع الحسي : فكلمة « أرملة » مثلا ، تحمل طابع الرمل الذي كانت تطلي به المرأة وجهها عندما كانت تشيع جثمان زوجها إلى القبر ، وكلمة « ذَنْب » تحمل طابع الذَّنَب من حيث ملاحقة صاحبه والحط من قدره ، وكلمة « ثوب » توحي بان العمل يلبس صاحبه كما يلبس الثوب الجسد ، وكلمة « عدالة » توحي بالنظام « بالاتزان « عدلي الفرس » . وكلمة « ذكاء » تحمل طابع ذكاء الشمس من حيث الاشراق .

وقد يبلغ الايحاء مداه في الكلمات المنحوتة : فكلمة « سلحفة » مثلاً منحوتة من « سل » و « لحف » فتوحي بأن السلحفة تسل وهي ملتحفة بقوقعتها ، وكلمة « ضفدعة » منحوتة من « ضفة » و « دعا » فتوحي بالضفادع على ضفاف النهر وهن يدعون بعضهن بعضاً ، وكلمة « عبقري » منحوتة من « عبق » و « قر » فتوحي بالزهرة التي تنثر العطر بصورة مستمرة ، وكلمة « جمهورية » منحوتة من « جم » و « جهر » فتوحي بجمع يعلن عن رأيه جهراً .. الخ

وأما البيان الصوتي فيرجع إلى العلاقة الطبيعية بين المعنى واللفظة في الكلمة العربية . نشأ اللسان العربي من عبارة الهيجان الصوتية . . والكلمات : أخ ، اخوان ، اخوة . انما هي تحولات لصوت التوجع : آخ . وليست الكلمات : أن أنيناً ، وعن عنيناً ، وحن حنيناً . . الخ إلا تحولات لعبارة الهيجان « ءِن » .

هناك مجموعة أخرى من المصادر مدت بها الحياة الذهن في صوغ الكلمات : وهي الأصوات التي تحدث في الفم ، ومعناها هو مايوحي به نمط حدوثها : بت : صوت يحصل

من تقاطع اللسان مع النطق فيوحي بمعنى القطع ، ومنها بتر والباتر ، وبتل والبتول « المنقطع عن الزواج » . وكذلك الكلمات : قد وقدر وقدس ، وقض وقضم . . الخ ولما استعان الذهن العربي بالاصوات الطبيعية كصوت خر الماء خريراً ، مثلاً اتخذ العلاقة بين الماء وبين مايحدث من صوت ، قاعدة في الاشتقاق . اتخذ تأثير الماء في مجراه خرباً أو خروجاً ، أو خرقاً قاعدة في ايجاد الأفعال :

خرب ، خرج ، خرق . . وذلك بالحاقه حرف « ب » أو حرف « ج » أو حرف « ق » إلى صوت آخر .

هكذا تبقى الكلمات العربية امتداداً للأصوات الطبيعية فتوحي بمعناها .

وبهذه المناسبة نتناول مسألة الاعراب . المسألة التي طال اللغط فيها من قبل المتطفلين على الثقافة العامة . ان الاعتراض على الاعراب هو اعتراض على مشيئة الحياة في جعلها الظواهر من الشعور في الهيجان بمثابة الجسد من الروح ، تستجلي الظواهر الشعور وتجسده بحيث يتيسر لها نقله حياً إلى الآخرين . وتستجلي العبارة الصوتية كوامن الحياة وتجسدها

فيتم نقلها حية إلى المستمعين . انه على قوة العبارة البيانية يقوم أمر التأثير في الجماعة وحملهم على رفع الحيف وعلى التعاون على تحقيق الأهداف المشتركة .

والحركات في الاعراب : الضمة ، الفتحة ، الكسرة انما شأنها تمهيد لذهن المستمع للتجاوب الرحماني مع مضمون العبارة . فالفتحة توحي بالركون تبعاً لركون اللسان عند حدوثها في الفم . فهي اعراب المفعول تعبيراً عن ركونه لاحتماله فعل الفاعل وهي اعراب الماضي تعبيراً عن انقطاعه عن الحياة ، عن دخوله في عالم الامكان . والضمة توحي بالفعالية تبعاً لتدافع الصوت عند حدوثها في الفم . فهي اعراب الفاعل الفعّال ، وهي اعراب المضارع ، حاضر ينزع إلى المستقبل ، والكسرة توحي بالنسبة تبعاً لحدوثها من كسر الشفتين ورجعتها لصاحبها .

وأما المعنى فهو حدس ينجم من الوجدان نجوم الالهام ، كمعنى لتجربة الشاعر الفنية . وهو يدعو صاحبه إلى الافصاح عنه بالعبارة الصوتية كما يدعو الالهام الفنان للافصاح عنه بالقطعة الفنية . والافصاح عن الحدس في اللغة وإن بدا

لأول وهلة خاضعاً لقواعد التداعي أي لدعوة صورة لصورة أخرى نظراً لما بينهما من علاقة اقتران أو تضاد أو مشابهة فانه ينكشف للمتأمل انكشاف الالهام من خلال الأنغام في الأنشودة .
وهناك مجموعتين من الكلمات تؤكد صدق وجهة النظر المتقدمة .

نقول برد القر ، وقرارة النفس ، وقر ، وقرأ . فكيف اجتمعت كلمات مختلفة في المعنى إلى هذا الحد تحت عنوان واحد ؟ هناك دويبة تحدث صوت « قر » يطلق عليها اسم قر قرير . ومن هنا صوغ كلمة قر وقرأ . هذه الدويبة تعيش في الأنهار أثناء الشتاء ومن هنا برد القر . وتعيش في قاع الأنهار ومن هنا صوغ القرارة .

والمجموعة الأخرى من الكلمات هي : أج أجيجا : صوّت . وأجيج النار لهبها وماء أجاج : ماء مالح . فكيف اجتمعت هذه الكلمات تحت عنوان مشترك رغم الاختلاف بينها في المعنى ! أج هو صوت ذكر الحمام عندما يحوم حول الأنثى والحمام إذ يحوم حول أنثاه ينفش ريشه ويحمى وكلمة حمام من الحماوة ومن هنا العلاقة بالنار . ولما ينفش الحمام ريشه يصبح كالبحر المهاج ومن هنا الاقتران بين الملوحة والموج فالماء .

وكلمتا « درّ » وضدها « فرّ » يرجعان بالاشتقاق إلى مصدر مشترك هو ترّ صوت سقوط الماء متقطعاً . وكلمتا عد (عدد) وعدم ضدان يرجعـان إلى نفس الأرومة . هذا وكثير من الكلمات تعني الشيء وضده معاً .

والكلمات التي تتضمنها أسرة « ذكاء » تكشف بدلولاتها الحسية والعقلية عن تجليـات الحدس العربي في الأمر ، كما تكشف كلمات القصيدة عن تجربة فنية واحدة . (راجع كتابنا العبقرية العربية في لسانها)

* * *

المغزى الثقافي للاشتقاق

بدأت اللغة بداية طبيعية ، بدأت بعبارة الهيجان الصوتية ، وليست اللغة الطبيعية التي يشترك فيها الانسان والحيوان ، إلا بمجموعة من الأصوات والحركات التي تعبر عن الشعور في الهيجان . ولكل نوع من الأحياء عبارته الخاصة بالتعبير عن تحسساته ومشاعره . وأما اللغة الانسانية فهي استثمار للعبارة الطبيعية وذلك من أجل استجلاء الحدس الذي تتفتح عنه النفس ، فاذا كانت العبارة الطبيعية أي بوادر الهيجان وسيلة تستعين بها الحياة لتحقيق الشعور ، فإن العبارة التي يتبناها العقل أي الرموز تهدف أول ما تهدف الى الافصاح عن المعنى ، وفي الافصاح ازكاء للحياة والمعنى . مثل البوادر من الشعور كمثل الجسد من الميول ، ومثلهما كليهما كمثل القصيدة في استجلائها الهام الفنان . أو لم يشار الى أن الآراء في تجاوبها بين النفوس على مثال النار في انتقالها بين الوقود .

هكذا تكمن الانسانية في الشعور بواجب الافصاح عن الحقيقة وبواجب نقلها للآخرين . وانما اللسان اداة هذا الشعور المميز للانسان .

ولكن المعنى المستيقظ لا يقف عند عبارة الهيجان الصوتية ، فانه يتخطاها الى أصوات تحدث في الطبيعة ، كصوت خرير الماء ، والى أصوات يلاحظ حدوثها في الفم كصوت بتّ مثلاً ، وما زال اللسان العربي يحتفظ بمبدأ الانتقال هذا من صوت الهيجان الى الأصوات الأخرى .

كان الذهن العربي قد استند الى صدى الصوت المحدث في النفس في صوغ فريقاً من الكلمات ، من الأصوات المحدثة في الفم ولا سيما الحركات وعليها تقوم جميع الصيغ في اللسان العربي (الفاعل ، المفعول ، المكان ، الزمان ، الآلة . . الخ) . ولما كان صدى الصوت في النفس يتسم بسمة الانفعال ، فقد أصبح هو المبدأ الذي يستند اليه المعنى في تقمص الأصوات الطبيعية (خر الماء خرخر ، تر الماء ترتر . . الماء . .) . مثل المعنى المستيقظ في تقمصه الأصوات كمثل الفنان في انشائه الصور بالمجاز .

ان الحياة في مرحلتي تطورها تستعين بالشبه في الانفعال (صدى الصورة في النفس) على التردد بين المتشابهات .

هكذا كان الانفعال أساساً للانتقال من عبارة الهيجان الطبيعية الى أصوات مستحدثة في الفم فالى الأصوات في الطبيعة .

هناك عامل آخر ساعد على فك الصورة عن الشعور وجعلها أداة يتصرف فيها الذهن الا وهو الاختلاف في الشعور بين ما ينبعث من الصميم وبين ما يوحي ايحاء . شتان بين الولد ثمرة الحياة وبين الولد المتبنى ، الأول تتمخض عنه الأحشاء ، والآخر يداعب مشاعر الأمومة فقط وشتان بين الشاعر الملهم الذي تزدهر حياته بالمعاني وبين الهاوي الذي يتأمل في ما أنجبته قرائح الآخرين . إلى تميز الذهن هذا بين شعور منبعث من الصميم فتشخصه العبارة ، وبين شعور توحيه العبارة ، يرجع أمر تردد الذهن بين الحقيقة والعبارة ألا يرجع الى هذا التردد أمر الحرية ، حرية اشتراك المرء مع العناية في تعيين مصير الانسانية .

ولكن إذا كان أمر تحرير المعنى عن العبارة قد أدى الى انشاء خيال يقوم مقام الطبيعة في بعث المشاعر وفي

استدراج الآيات الى الوجدان . فإن هذا التحرير هو مصدر الضلالة والأوهام والكذب أيضا .

في البداية ، كان الشيء واستجابة الذهن عليه والكلمة التي تعبر عنهما تؤلف كلا واحداً مما أدى إلى التداخل بين الوجود والوجدان ، تداخلاً أثقلت به الحقيقة فتعثر من جراء ذلك العقل في تقصيه الحقائق . وكيف تم للعقل أن يتحرر من أراجيف الانفعالات ، بل كيف تيسر له أن يدرك الحقائق الكونية والحقائق الذاتية (الانسانية) مستقلة عن صداها في الوجود .

شقت الحياة طريق صعودها نحو الانسانية بحس الرؤية ذي الوضوح والدقة ، ولدى التأمل في بنيان كلامنا ينكشف لنا هذان الأمران ، أولهما : أن الذهن قد استعان بالرؤية في صوغ الكلمات من الصوت كاستعانته بخيال الفقاقيع عند صوغه الكلمات : فقأ وفقح وفقص . . الخ . من صوت فق الماء فقفق ، وثانيهما انه قد ترجم المشاعر والاحساسات المبهمة بلغة الرؤية المبينة . مثل حس الرؤية في تحريره الأشياء والمعاني من صداها في الوجدان كمثل العلم في تحريره

العقل من وجهة نظر الانسان وأي مبلغ من الاستقلال بلغت الحقيقة عندما انسجمت السماوات والأرض في نفس النظام (قانون نيوتن) . وأي مبلغ من الرفعة بلغ الانسان عندما تلألأت الآيات (الحق العدالة ، الخ . .) في عليائها مستقلة عن الأهواء استقلال الكواكب عن الغيوم . وقد أبلغت الآية بياناً عن نمط الحياة في تطورها : كانت السماوات والأرض رتقاً ففتقناهما ، أي كان بعضهما ملتبساً ببعض فكان يخيم عليها الظلام (الابهام والغموض) ثم تباين قطباها فانتهى التباين بأن ازدانت السماء بالنجوم وازدهرت الأرض بالأحياء ، يا لها من حقيقة تلخص سر نمط التطور في الاحياء والافهام .

فاذا كان العلم يحرر ، بتساند حقائقه ، الذهن من انفعالات الحياة ، فان الاشتقاق في اللسان العربي هو أيضا يمد الذهن بنفس الأسباب . الا يرجع إلى الرابطة الاشتقاقية أمر انبعاث الخيال المرئي في الكلمة العربية ، فتحويل هذه الكلمة الى صورة مجازية ؟ ألا يرجع الى هذه الرابطة انبعاث خيال الرمل من كلمة (أرملة) مثلاً ، أو انبعاث خيال الحصن من كلمة حصان ؟ .

ولدى التأمل في الــكلمات المشتقة من ذات المصدر المعبرة عن المحسوسات منها والمعقولات يبدو قطبا الذهن جليــا ، المعنى والصورة ، ويبدو أيضاً انكشاف الذهن بتجاوب قطبيه : تارة يوقظ المحسوس الذهن ، تارة أخرى يوجه المعنى الذهن نحو المحسوس ، ونحن نوضح وجهة النظر المتقدمة بالمثال التالي :

كلمتا « حرية » و « حرارة » هما من نفس المصدر ، والحرية هي الأصل ، فلمــا شعر الحر بالغيرة دبت فيه الحرارة ، فمن الشعور بالحرارة المرافقة انتقل الذهن الى الحرارة في الطبيعة . وذلك بالاستناد الى مبدأ المشابهة في الجو Affection هذا بينما كلمتــا ذكاء في النفس وذكاء في الطبيعة يرجعان الى مصدر (د ك) المتضمن معني الدلك ، الشرارة ، اللمعة ، وفي المثال الأخير يظهر طابع المحسوس أصل في الأسرة .

والتأمل في الرابطة الاشتقاقية يكشف لنا عن أمور أخرى ، ففي كل أسرة من الكلمات العربية يكون المحسوس تعريف بالاشارة للمفهوم المجرد ، كتعريف الشريعة بالشارع مثلاً (قاعدة تسلكها الناس في علاقاتهم بعضاً ببعض)

ومن خلال الكلمات المشتقة من ذات المصدر تظهر قواعد الأفكار ، الاقتران والمشابهة والتضاد . فتارة يخضع الذهن في صوغ الكلمة الى الاقتران ، وتارة أخرى تعمل المشابهة عملها والكلمات المعبرة عن معنى التضاد كثيرة الورود في المعجم .

وقد تكشف الرابطة الاشتقاقية عن الحدس الذي يبدر في النفس عندما تستجيب على منبه ما فترفع الذهن عندئذ إلى ما يتخطى المحسوس نحو بنية الحياة الانسانية نفسها . « راجع كتاب المؤلف : العبقرية العربية في لسانها ».

* * *

منزلة البلاغة عند العرب

عرّ الظبي : صات — وكلمة « عرب » مشتقة من عرّ بالحاق حرف « باء » اليها من الحرف الذي يفيد الظاهر الواضح ، بحسب مخرج حدوثه من انفتاح الشفتين . وبناء على ما تقدم فإن كلمة « عرب » تعني صوتا ذا بيان ، وهكذا ورد الحديث : أعربت السيب عن نفسها : أفصحت وأبانت .

وإذا اشتق العرب اسمهم من الصوت ، فقد اكتشفوا الصفة التي يتميز بها الإنسان عن البهيم الحيوان ، فوصفوا بها أنفسهم . وإذا هم نعتوا غيرهم بـ « العجم » فقد أرادوا إظهار الاختلاف في القدرة على البيان بينهم وبين غيرهم من الأقوام . عجم من عج (العجاج) مع إلحاق حرف « ميم » الذي يحصل من انغلاق الشفتين فيفيد الابهام . فكأن الذهن العربي يشير بذلك الى الابهام في لغات الآخرين ، الى اللغط عندهم ومن هنا العجموات .

حدثني قرويون من القرى المتاخمة للبادية فقال أحدهم : ان اعرابياً من البادية وجه اليه السؤال التالي : كيف تمضون أوقاتكم أنتم معشر الفلاحين ؟ أجـــاب : محدثي القروي بأنه يمضي أوقاته بالعمل منذ الفجر حتى غروب الشمس في حراثة الأرض وفي البذار ، وجمـــع المحصول والدراسة . الخ . . . فرد عليه البدوي مندهشاً : متى ، إذن ، تجلس مع الرجال فتتعلم فنون الكلام ؟ . . .

هو ذا العربي على فطرته ، يهتم أول ما يهتم بفن الكلام ، بالفن الذي يميز الانسان عن الحيوان . وبعد ذلك أفمن العجب ان أتى اللسان العربي مستوفياً شروط البيـــان ، لا سيما وقد اشترك منذ فجر التاريخ حتى اليوم في نحت كلامه ، ابناء أمة بأجمعهم ،مستعينين على ذلك بالاصالة والذكاء .

وهاك نكتة طريفة عن تفوق العربي في فن الكلام على غيره من الناس ، حدثني عامل في معمل الاسمنت بدمشق وعهد الحديث يرجع إلى سنة ١٩٣٨ وقت هجرتنا من انطاكية فقال : ان العمال موزعون في المعمل على فرق وكان كل فريق من غير العرب يختار من بين العمال عاملاً عربياً يرفه

عن أذهانهم بقص القصص عليهم . وهم يقومون ، بدورهم ، بحصته من العمل .

فما هي المعجزة التي دعت الى اكبار العرب لنبيهم محمد ؟ أهي معجزة شفاء المرضى ، أم هي البلاغة في البيان ؟ ان الاختلاف بين أمة أصيلة وبين أمة هجينة إنما هو اختلاف في الحساسيه للجمال أو للنفرة من البشاعة . وهكذا كانت المعجزة في نظر أجدادنا الجمـــال والكمال لا ترميم العطب في الحياة .

وكذلك كان شعراؤنا في الجاهلية ، يرتشفون الحياة من ينبوعها فينشدون مفاتن الجمال . ولم تبدأ الثورة على البشاعة إلا في عهد الانحطاط حين تفشى الفساد وعم الاعوجاج .

وأما البلاغة عند العرب فتتلخص بالقول المأثور : خير الكلام ما قلّ ودلّ . حينما كنت طالباً في باريس تعرفت إلى أحد الزملاء في الدراسة وكان الزميل من أوربا الشرقية وأثناء الحديث سألته عن اسمه وكم كانت دهشتي عندمـــا استعرضت الحروف التي يتألف منها ثماني وعشرين حرفا . قلت لزميلي : كلامنا يتألف مبدئياً من ثلاثة أحرف وذلك يعني ان ذهننا يحتــاج في تنقله من فكرة الى فكرة الى

ثلاثة – ركائز بينما ذهنكم يزحف على ثمان وعشرين ركيزة ، فنحن ، اذن ، منكم بمثابة الانسان من الديدان . هكذا كان لساننا مطابقاً لمشيئة الحياة في اقتصارها الطريق (الايجاز في العبارة) بغية انفاق الوقت المقتصد لسبر اغوار الوجود أعمق فأعمق .

وما البلاغة إذا لم تكن ابلاغ العبارة صور كمالها من البيان ، وبتعبير آخر ايصال المعنى حيا الى الأذهان ، وأي لغة تتمتع بما يتمتع به لساننا من القدرة على الايحاء . فإذا كان البيان في لغات غيرنا من الأقوام يقف عند الاسلوب (سياق العبارة) فإن البيان في لساننا يتناول فضلاً عن الاسلوب الكلمة ذاتها ، حروفها وحركاتها . وهاك بعضاً من الأمثلة عن ذلك .

فكلمة « سلحفاة » منحوتة من « سل » و « لحف » فتوحي بدلولها : زاحفة تسل وهي – ملتحفة بقوقعتها . وكلمة « ضفدع » منحوتة من ضفة (النهر) ودعا فتشير الى مخلوقات تجتمع على ضفاف الأنهار فيدعو بعضها بعضا . وكلمة « عبقري » منحوتة من عبق (الزهر) وقرّ فتدل على زهرة تنشر العطر بصورة دائمة . هكذا بدأ الابداع

للذهن العربي ، على مثال العطر الذي يزين الزهرة . وكلمة « نبغ » توحي بحروفها وبنظام هذه الحروف بأن الالهام ينبثق من تحت الشعور متعالياً إلى ساحة الوجدان وأمـــا الحروف فيفيد كل منها ، بحسب طريقة حدوثه ، المعـاني التالية « ن » الصميم « ب » الظهور « ع » الغيب .

وهناك ناحية بيانية خاصة بلساننا وهي الخيال الرؤية . هذه الخاصة الفريدة توضح المعاني المجردة وتعرفها : فكلمة « ذكاء » الشمس ، تعرف الذكاء كلمعة في النفس . وكلمة « شارع » ـ تعرف الشريعة كقواعد إجماعية يسلكهـــا الناس في علاقاتهم بعضاً مع بعض . وكلمة « رأس » تعرف الرئيس كمحل التقاء أماني وآمال القوم .

ولذا فإذا قيل : ان من البيان لسحرا ، فإن القول يعني ، بصورة خاصة ، اللسان العربي .

☆ ☆ ☆

الوجهة التربوية للكلمة العربية

تحدثنا عن ثلاث مزايا للكلمة العربية : الفلسفية والأخلاقية والشعرية ، فقلنا فيما يتعلق بالوجهة الفلسفية للكلمة العربية : ان الكلمات المختصة بالشؤون الانسانية توحي بتجربة الحياة الأولى ، كما تجلت لاجدادنا عفو الخاطر على مثال اشراق الالهام في نفس الفنان ، حتى لكأني بلغتنا معجم نظمته الحياة نفسها ، فسجلت فيه تجلياتها . وان هذه الكلمات الموضوعة ، بتعاون بين الفرد والعناية ، لتنزع الى صيغ هي بمثابة المثل فتوجه الذهن بنزعتها المثالية هذه الى ابلاغ كل شيء كماله ، نزعة تدعم النفس في ميلها الى الواجب والاصلاح ، وان المعاني التي توحيها كلماتنا ليست بمجردة فتبقى طافية على سطح الوجدان كما تطفو الأوراق المنفصمة عن أغصانها على سطح الماء ، بل انها مكتسية بحلية من الشعر (البيان الصوتي المرئي) تجعلها حية ذات جذور في صميم الوجدان .

والآن نتحدث عن مزية رابعة للكلمة العربيـة وهي طابع هـذه الكلمة التربوي . ونحن نعني بالتربوي المعنى المتضمن في الكلمة ، معنى النمو : ربا يربو . ان الانسان مزدوج الطبيعـة : شعور وجسد . فمن حيث هو جسد ينمو بالقوت ، بالغذاء الذي يتمثله فيساعده على انكشاف ما ضمر في مصور حياته من استعدادات ، ومن حيث هو شعور ينمو بالوعي ، باتصال الذهن بالحقيقة ، والحقيقة من النفس بمثابة القوت من الجسد .

تبدأ الحياة بانشاء مظـاهرها سليقة ، ثم تتأمل فيما انشئت فترفع به عن مستوى الغريزة الى صعيد الوجدان وبهذا الصعود ينتقل الانسان من عهد الناموس (العرف) الى عهد روح القدس (المعاني) منبثقة من أعماق النفس . وعندئذ تبلغ الحياة في الانسان سن الاستواء ، سن الازدهار بالمعـاني ، كما تبلغ الشجرة كمالهـا بالزهر المنبعث من صميم كيانها .

ان للعودة بالتأمل الى ما نسجت الحياة عفواً من عرف ولغة أثراً آخر لا يقل عن ازكاء الشعور وايصاله الى مستوى

الابداع والعبقرية ألا وهو الانسجام مع عبقرية الأمة نفسها. وهل للبعث من معنى غير هـذا المعنى ، وكم نحن مفتقرين لأن تكون استجابتنا للاوضاع المستجدة وللمعاني المستحدثة استجابة صادقة تجعل قواعد حياتنا وكلماتنا مستوفية شروط نهضتنا ولا سيما ، قد أصبح الاختلاف بيننا وبين اجدادنا في استعمال اللغة مماثـلا للاختلاف بين من يدرس تشريح اليد فيتعرف على حركاتها معرفة خارجية وبين من يحرك يده بالبداهة الطبيعية .

وكيف نوقظ الشعور فنجعل الانسجـام بين الشعور المستيقظ وبين عبقرية امتنا فتؤكد بعثنا بعثـاً تصبح فيه استجابتنا لمنبهات البيئة استجابة اصيلة .

جرت العادة في استعمال المعجم عندنا أن يرجـع الى الفعل ، كمصدر للاشتقــاق ، في تعيين معنى الكلمة : ارجاع كلمة « خارق » الى فعل « خرق » مثلا . في هذا الاستعمال قسط من الوعي يظهر تفوق لغتنا في تأثيرهـا التربوي على اللغات الأخرى (الوصول الى الفعل من خلال صيغ الكلمات المختلفة . وجرت العـادة على تعيين اعراب

الكلمة على الفتح أو الضم أو الكسر ، بناء على وظيفتها في الجملة لا على موضعها فيها وذلك هو أيضاً يزكي الشعور ايما ازكاء . ولكن فقهائنا في اللغة لم يستنفدوا جميع الامكانيات التربوية التي تضمنها دراسة لغتنا . لم يشر المعجم الى العلاقة بين فعل « خرق » وبين كل من الأفعال : خرب ، خرج ، خرد ، خرذ ، خرم . . . الخ) . ولا الى العلاقة بين الأفعال المتقدمة وبين ارومتها التي هي صوت : خر الماء خريراً . كما وان النحو لا يشير الى الأسباب التي تجعل الفاعل والفعل المضارع متحركين على الضم ، ولا للاسباب التي تجعل المفعول والفعل الماضي أن يكونا متحركين على الفتح .. الخ . مما دعا بعض المغفلين للمطالبة بالاستغناء عن الاعراب ، فلو تتبع الفقهاء الأفعال في تسلسلها حتى الصوت الطبيعي مصدر الاشتقاق ، ولو لاحظوا ماهو مشترك بينها من صوت (هنا الخرير) ومن هنا خيال تأثير الماء في مجراه خرباً وخروجاً وخرداً ، وخرقاً ، ولو قاموا بذلك لأدركوا نشوء كلماتنا من مصادرها في الطبيعة.

وأما الحركات والحروف فهي امتداد للعلاقة بين العبارة الصوتية والشعور بالهيجـــان . فكما ان لكل من الغضب

والفرح عبارته ، فكذلك كل صوت يحدث في الفم معناه الذي هو صدى حدوثه في النفس وصدى حدوث الضمة هنا الفعالية ، والضمة تعبر عن الفعالية أينما وجدت ، في صلب الكلمة أو في آخرها ههنا نعيد بعضاً مما ورد في رسالتنا العبقرية العربية في لساننا ، بخصوص نشوء اللغة :

« ان العبقرية العربية قد استندت في انشائها اداة بيانها الى المداد المنطوى في الصور الذهنية والى تعديل مظاهر الحياة المختلفة بالصوت الذي هو طوع ارادتها وبالرؤية التي هي ذات تلون ودقة وهل يختلف نهج العبقرية هذا عن نهج الحياة أهي تعدل حركة الضم العضلية بالصوت والصوت بالرؤية ، منتقلة بهذا التعديل الى مداد اخذ بالدقة ، مداد تقتصر به الجهد اللازم لانشاء درجات صعودها نحو انسانية متكاملة ؟ ان اللسان العربي بمبدئه المعنى وبتجلياته الأصوات هو على غرار البدن شجرة سحرية نامية ، جذورها في الملأ الأعلى (المعاني) وتجلياتها في الطبيعة . وان ما يجب علينا والحالة هذه أن نبدأ بعثنا القومي ببعث كلامنا ، وأن نحذر على صرحنا هذا من الدخلاء على بيئتنا » .

وتحقيقاً لذلك يجب أن نستقصي في دراسة لساننا ، نمط الحياة في إنشائها اياه مرتقين حتى جذور الكلمات في الأصوات الطبيعية ، وحتى انبثاق المعاني من الملأ الأعلى .

ملاحظة (١)

ان اللسان العربي يختلف بالتكوين عن لغات أوربا ، وخاصة عن اللغة الفرنسية ، هذه تاريخية حصلت منظومة ألفاظها عن اللاتينية ، وفق عبقرية سكان فرنسا وبتأثيرهم ، واللغة اللاتينية نفسها قد تم تكوينها على الطريقة ذاتها . كل من هذه الشعوب اقتبس عن غيره اداة بيانه ، ثم حرف مجموعة الألفاظ المقتبسة بحسب مقتضيات عبقريته .

وأما اللسان العربي ، فهو طبيعي ، تتصل الكلمات المستحدثة فيه بالأصوات المقتبسة عن الطبيعة ، مثله كمثل الجسد ، كما يرجع بالقدرة التي تتألف منها خلاياه إلى الطبيعة ويدل بوجهة منظومة هذه الخلايا على نوع الحياة ، كذلك هي الكلمات العربية ، ترجع بمعناها الى النفس وبمنظومة ألفاظها الى الطبيعة .

ملاحظة (٢)

انه لمن الثابت ، بحكم التاريخ ، ان اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية ، قد حصلت من تحول اللغة اللاتينية . وكان ذلك بتأثير عوامل سياسية اجتماعية . وانه لمن الثابت بحكم التاريـــخ أيضاً ان اللغة الفرنسية هي لهجة منطقة باريس . المنطقة التي طبعت مقاطعات فرنسا الأخرى بطابعها السياسي الثقافي فجعلت لهجاتها تتراجع أمامها فتندثر .

وانه على هذه الدراسة قد قام الزعم بأن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الأخرى علاقة أخوة ترجع بأصولها الى لغة الأم التي هي لغة سامية بائدة ، وان ثمة لهجات عربية تقلصت أمام طغيان لهجة قريش ، لهجة الديانة والسياسة . ولقد جارى بعض المغفلين من أبنـــاء الوطن المستشرقين في هذا الزعم القائم على افتراض وجود أسرة لغات سامية على غرار أسرة اللغات اللاتينية . وعلى افتراض وجود لهجات عربية مختلفة في الأصول وفي نمط النمو .

يا له من زعم سخيف ! . . لقد فات هؤلاء المغفلين وأولئك المضللين ان الكلمات العربية ذات أصول في الطبيعة

وان مبدأ الصحة فيها قد تعين من قبل الفطرة لا من قبل العرف والعادة .

ملاحظة (٣)

ثمة خطأ شائـــع بين اللغويين ، وهو ان العلاقة بين المعنى واللفظة في اللسان العربي على مثال العـلاقة بينهما في اللغات الحديثة ، علاقة اصطلاحية ، بمعنى أن اللفظة تشير الى معناها اشارة فقط بيد ان اللسان العربي ذو بنيـــان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي به احياء ، حتى ان اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة ، مما يجعل صاحبه أكثر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق والديانة . انما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الأمة التي انشأتـه ودلت عليه .

ملاحظة (٤)

ينهج الذهن الاوربي ، في دراسة اللغة ، نهج العلم في دراسة الحوادث الطبيعية ، أنه ينصرف الى قوانين الصوت التي تكشف عن تأثير التداعي بالاقتران ، أي عن تأثير

العادة . في حين ان موضوع اهتمام الذهن العربي هو علاقة المعنى بالصورة الصوتية وتأثيره فيها تأثراً تتثبت به صيغتها .

ملاحظة (٥)

تستلزم دراسة اللسان العربي اتجاهين : اتجـاه الصوت واتجاه المعنى ، فالاتجاه الأول ينبغي أن يتناول ثلاثة مباحث :

١ ـ مبحث الأصول : وبه ترجع الكلمة بالاشتقاق إلى الأصوات المقتبسة عن الطبيعة .

٢ ـ مبحث البيـــان : وبه تتعين العلاقة بين الصيغة والمعنى من جهة ، وبين وظيفة الكلمة وإعرابها من جهة أخرى ، على اعتبار أن الصوت بادرة طبيعية للمعنى .

٣ ـ مبحث الايقاع : وبه يدرس التصريف والاعلال والادغام والابدال .

وأما اتجاه المعنى فينبغي أن يتناول :

١ ـ أمر الحدس أو المصمم الذي تكشف عن وجهاته المختلفة ، الكلمات المشتقة من المصدر ذاته سواءاً كانت صوراً حسية أو مفاهيم معنوية .

٢ ـ أمر تعيين ما كان لتداعي الصور والظروف والتاريخ من تأثير في إيجاد عدد عظيم من مشتقاته .

٣ ـ أمر الكشف عن مغزى القواعد النحوية : مغزى تتضح به العقلية العربية ومراميها في الحياة .

ان الاختلاف بيننا وبين أجدادنا في استعمال اللغة يماثل الاختلاف بين من يدرس تشريح البدن ليتعرف على حركاته معرفة خارجية وبين من يحرك يده بالبداهة الطبيعية .

* * *

الحروف الابجدية

في السنين الأخيرة جرت مناقشات حول نشأة الحروف الأبجدية بين ذوي الاختصاص في هذا الموضوع . ففريق منهم زعم أن الفضل في وضع حروف الكتابة الدارج استعمالها عند الأمم المتمدنة يرجع الى « كريت » وان كان الفينيقيون ، وهم من سلالة الساميين قد نشروها في أرجاء العالم ونحن عندما عقدنا العزم على دراسة اللغات السامية من أجل استجلاء اصول هذه اللغات واظهار علاقتها بلغة الأم التي هي اللغة العربية وبدأنا بدراسة اللغة السريانية استرعى انتباهنا الشبه بين شكل كل حرف وبين الشيء الذي يمثل أول حرف منه . فشكل الألف يخيل على الغريب صورة انسان ، وشكل (ب) صورة البيت ، وشكل (ج) صورة الجمل ، وشكل (د) صورة الدلو ، وشكل (ه) صورة الهالة ، وشكل (ز) صورة الزند ، وشكل

(ح) صورة الحبل ، وشكل (ط) صورة الطير ، وشكل (ي) صورة اليد ، وشكل (ل) صورة اللجام وشكل (م) صورة المطر ، وشكل (ن) صورة النجم ، وشكل (س) صورة السن ، وشكل (ع) صورة العين ، وشكل (ف) صورة الفم ، وشكل (ص) صورة الصبي ، وشكل (ر) صورة الرأس ، وشكل (ش) صورة الشمس .

وهكذا اخذ في وضع حروف الأبجدية أول حرف من الشيء رمزاً للشيء نفسه ولكن اتخاذ الحرف الأول من الاسم كرمز للمسمى يدل على جنسية واضع الاصطلاح ولما كانت حرف (الألف) تحتفظ حتى اليوم بلفظها وترتيبها ، كما وضعت فى الأصل ، ولما كانت هذه الحروف تمثل أول حرف من اسم عربي ، فقد أصبحت أسطورة النبي ادريس ، أول نبي أعطى فن الكتابة ، أسطورة صادقة . وكلمة « ادريس » تشير باشتقاقها من درس إلى الحقيقة تلك .

وإذا كانت اللغة السريانية ظلت محتفظة بالشكل الأقرب الى الأصل فإن أصحابها بقوا على هامش التاريخ منزوين . وأما العرب ، واضعو الحروف ، فقد تطورت كتابتهم نحو

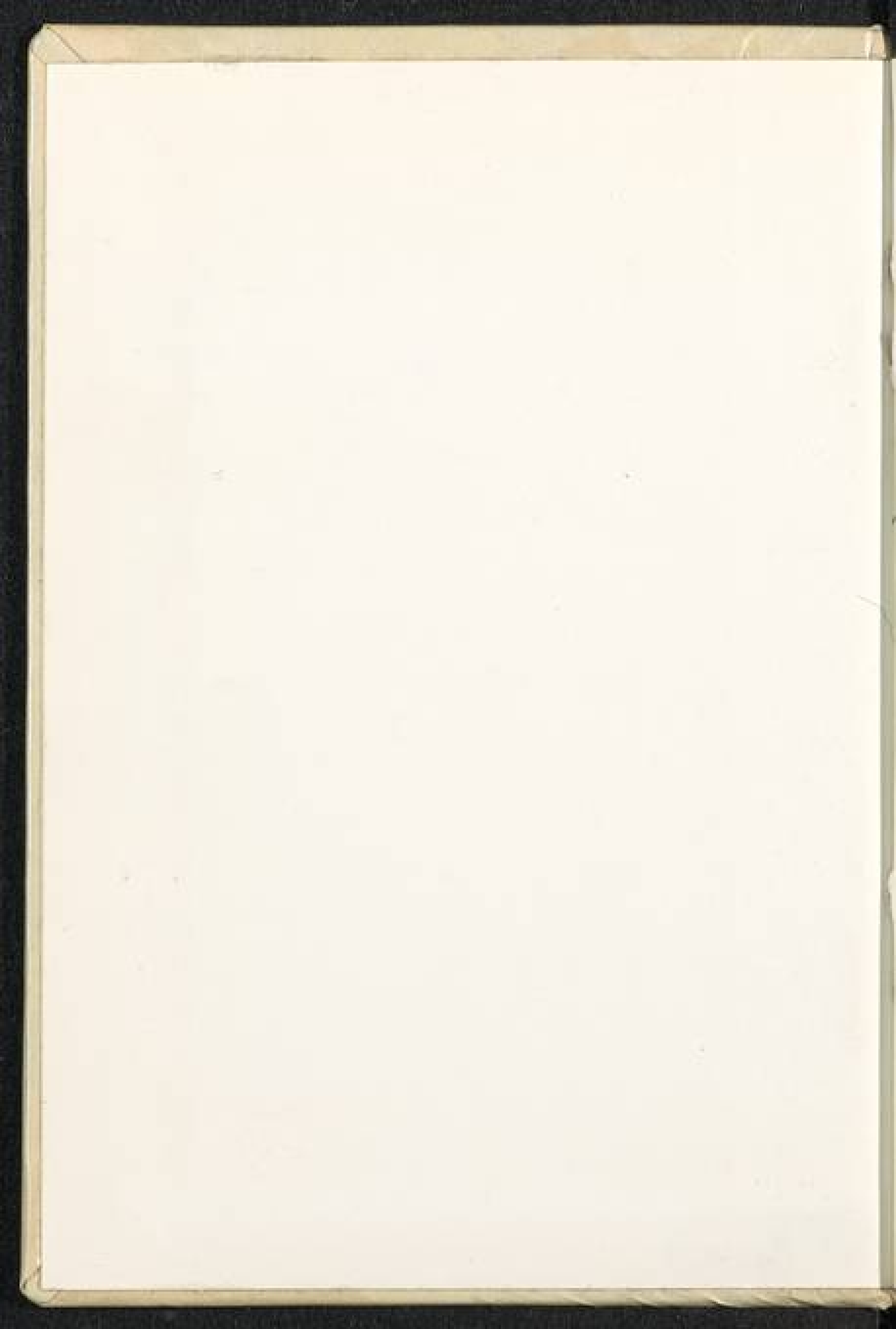
الرمز أكثر فأكثر تطوراً ابتعدت به عن صورة نشأتها .

ونحن نستخلص مما تقدم أن الفضل في وضع الحروف الأبجدية يرجع الى العرب لا لغيرهم من الأقوام . وإذا كان الأمر كذلك فأي اختراع يضـــاهي في تأثيره على تقدم الحضارة اختراع الكتابة وتعليمها للعالم .



الفهرس

صفحة





الثمن ١٥٠ ق٠ س